



828: B996YsA

السعيد

828
B996YsA

DATE DUE

J. Lib.

~~1 OCT 1983~~

East. Sept. 1945

أمينه السيد

828

B 996 Ys A

C.1



بايرون

East. Sept. 1945

59525

١٥

اقرا

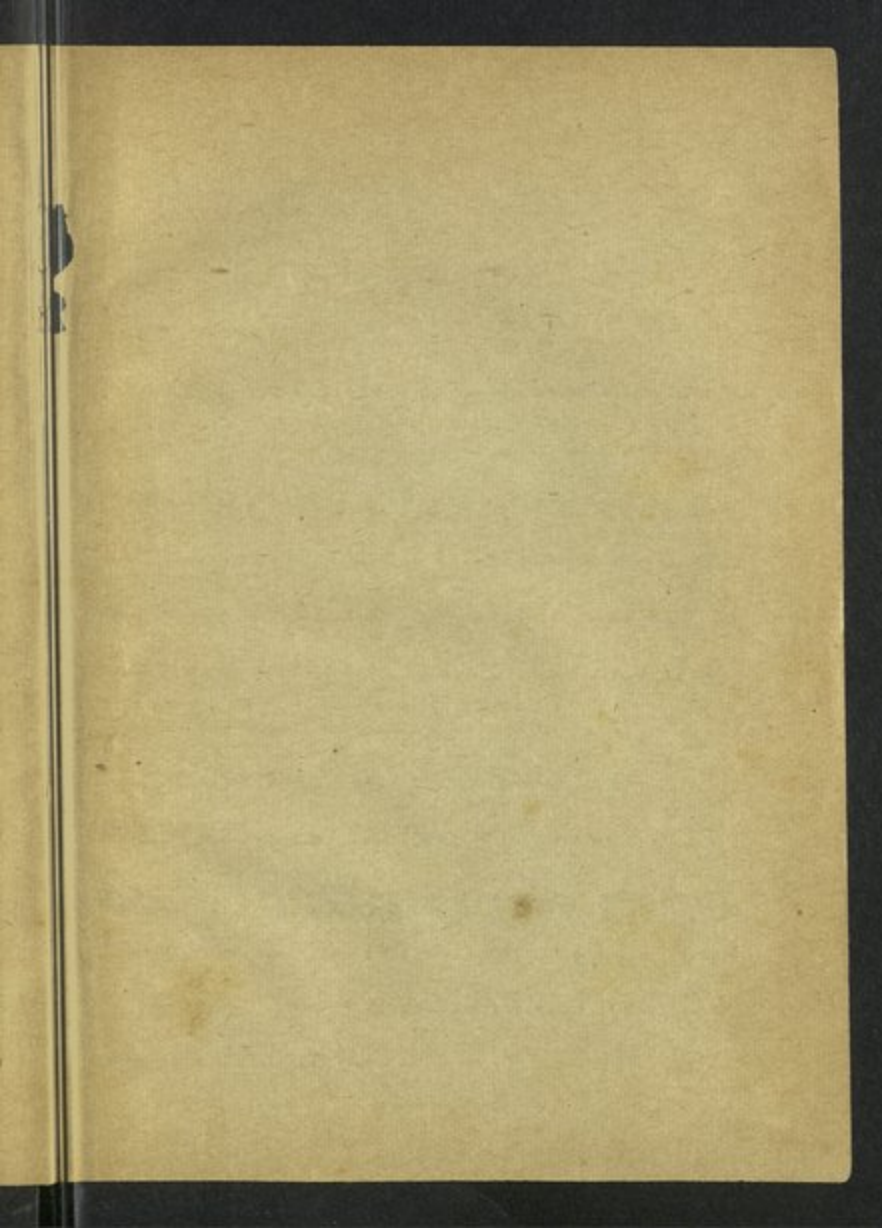
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون بحيل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



جميع الحقوق محفوظة
الطبعة المعارف وكتبتها بصر



لورد بیرون



١٩ أبريل عام ١٨٢٤

هبت على بلدة ميسولونجي في اليونان عاصفة هوجاء اقتلعت
الشجيرات ، وحطمت الأغصان ، وهزت الأكواخ . وتساقطت
الأمطار في سيول ملأت الطرقات بالوحول . وزجر البحر غاضباً
فقامت أمواجه تضرب الشاطئ في شدة ووحشية ، ومع ذلك
تجمع الناس حول بيت صغير يقوم فوق رابية ترتفع قليلاً عن
مستوى البحر . ووقفوا صامدين لغضب الطبيعة ينتظرون في لهفة
وقلق ، أنباء بطلهم المحبوب . وفي حجرة صغيرة من حجرات
البيت ، كان هذا البطل يجود بأنفاسه الأخيرة ، ويعالج سكرات
الموت على فراش رخيص يبعد آلاف الأميال عن وطنه وأسرته .
ولم يطل الصراع به فأسلم الروح في هدوء وسكون . وطلع الخبر على
الملتحمين فاصفرت الوجوه ، وارتجفت القلوب ، وانهمرت الدموع
غزيرة من عيون رجال عرفوا بالخشونة والوحشية ، وهتف الكل
قائلين : « مات الرجل العظيم » .

وعند ما أشرق الفجر أطلقت المدافع تحية للراحل الكريم ،
وأغلقت الحكومة دواوينها أياماً ثلاثة ، ووقفت الاحتفالات
في جميع أنحاء اليونان ، وأعلن الحداد العام في طول البلاد
وعرضها .

ووصلت أخبار وفاة البطل إلى أوروقة فوجم الناس في ألمانيا ؛
وفي فرنسا وضع الشباب شارة الحداد على قبعاتهم ؛ وفي إنجلترا
قضى التلاميذ يوماً حزيناً في قراءة دواوين الراحل وقصائده
الكثيرة .

ففي اليوم التاسع عشر من شهر أبريل عام ١٨٢٤ مات
جورج جوردن بايرون أعظم شعراء القرن التاسع عشر في إنجلترا .
وبموته في اليونان انطوت صحيفة مليئة بالأحزان والمآسى لرجل
تحدى تقاليد مجتمعه فنبذه ذلك المجتمع وقضى عليه بالنفي
والتشريد .

نزلت أسرة بايرون الجزر البريطانية في صحبة وليم الفاتح دوق نورمانديا . واشتهرت تلك الأسرة بالشجاعة على مضي القرون ، وخاض أفرادها الحروب والمعارك ، وأظهروا ولاء الملوك المتعاقبين مما رفع شأنهم ووطد أقدامهم في البلاد . ومن أجل خدماتهم العدة وإخلاصهم العميق منحوا الألقاب والضياع ، فاستعت أراضيهم في نيوسايد بالقرب من نوتنجهام ، وفي روشديل بمقاطعة لانكشير .

ولكن لعنة ما كانت تحوم حول هذه الأسرة فتجعل من أفرادها مرده جبابرة تجرى في عروقهم دماء الشياطين . وظلت تلك اللعنة تنتقل من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل حتى وفاة اللورد السادس جورج جوردن بايرون شاعر الانجليز العظيم : ففي نهاية القرن السابع عشر مات اللورد الثالث بعد أن بدد أموال أسرته ، ونشر الرعب في قلوب جيرانه وأصدقائه . وزادت الحالة سوءا في عهد حفيديه ولدى اللورد الرابع . فلقد أنجب هذا الرجل ابنين : أكبرهما وليم بايرون الذي ورث لقب أبيه واشتهر

فيما بعد « باللورد الشرير » ؛ وثانيهما الأدميرال جون بايرون المعروف باسم « چاك المنحوس » .

ولوليم بايرون تاريخ حافل بالشروور والمتاعب . فلقد كان حاد الطباع نارى المزاج ؛ يتشاجر أينما ذهب ، ويخلق المتاعب أينما حل . واختلف يوماً هو وجاره شوارث صاحب قصر أنسلى فدعاه إلى المبارزة فى حجرة مظلمة وقتله غيلة وغدراً ، وقبض عليه ، وحوكم أمام مجلس اللوردات ؛ وبعد دفع غرامة كبيرة أفرج عنه ، فعاد إلى قصره فى نيوسايد . وثار الرأى العام ضده ، فقاطعه أصدقاؤه ، وتجنبه جيرانه ، ولقّبه الناس باللورد الشرير . ولم يحاول هو أن يسترضى الناس ، أو يكفر عن جريمته بل اعتكف فى بيته ، وأمعن فى شرووره ، وسام زوجته صنوف الوحشية والعذاب ، فلما هربت منه استعاض عنها بخادمة قروية . وحدث أن تزوج ابنه البكر دون موافقته ، فثارت ثائرة اللورد الشرير ، وأقسم أن ينتقم منه بتبديد ثروة الأسرة حتى لا يجد الولد بعد وفاة أبيه إلا الخراب والدمار ؛ فقطع أشجار الغابات وباعها ، وبدد ثمنها فى المقامرة ، وذبح الغزلان التى كانت ترعى فيها ، وحطم حجرات القصر ، وأجر ضيعته الثانية

روشدیل بأجر اسمی زهید لمدة طويلة ، وقضى بقية أيامه في
تربية الصراصير وتدريبها على تعرف صوته وإطاعة أوامره !
وذهبت الثروة كما شاء ، ولكن الابن مات قبل أبيه فلم ينله
الانتقام من قريب أو بعيد ...

أما چاك المنحوس فقد كان ضابطاً بحرياً شجاعاً ، لازمه سوء
الطالع طيلة حياته . وكما قام برحلة بحرية هبت العواصف
والرياح فتنحطمت السفينة ويموت من عليها إلا هو . وفي عام
١٧٨٦ مات المنحوس ، وترك ولدين ، أكبرهما چون بايرون
والد الشاعر الكبير .



ورث چون بايرون عن آبائه وأجداده ثروة كبيرة من الخلاعة
والاستهتار والمجون . واتصف مثلهم بوحشية الطباع وحدة المزاج
فلقبه الناس « بچاك المجنون » . ولما بلغ الثانية والعشرين من
عمره أصبح مضرب الأمثال في الجمال الرائع والحسن الفريد .
وفوجيء المجتمع الانجليزى يوماً بهربه إلى فرنسا مع ليدي
فرنسيس كارمارذن زوجة دوق ليدز . وطلق الدوق زوجته ،
فاقترنت بحبيبتها ، وأنجبت منه ابنة واحدة هي النبيلة أوجستا

يايرون التي تردد اسمها في تاريخ شقيقها الشاعر وقصة حياته كلها..
وبعد عام من ولادة أوجستا ماتت الأم ، وبموتها انتقلت
ثروتها إلى أسرتها ، وضاعت سبل العيش في وجه جون يايرون ،
وتراكت عليه الديون ، فعاد إلى إنجلترا لعله يجد فيها سبيل
الخلاص ؛ وسبيل الخلاص هو أن يبحث عن امرأة غنية
يشركها في حياته وديونه . وفي مدينة باث وجد ضالته المنشودة في
شخص الأنسة كاترين جوردن الوارثة الوحيدة لممتلكات
أسرتها الكبيرة .

وكاترين جوردن فتاة عريقة الأصل تجرى في عروقها دماء
الأسرة المالكة الاسكتلندية . ولكن أسرتها أيضاً عرفت
بالوحشية والشرور ، فقد انتحر والدها في نوبة غضب من
نوباته المعروفة ، وقُتل جدها من قبله ، وشُنق عمها لجريمة
اقتربها . وتربت كاترين في رعاية جدتها ، ونالت من الثقافة
قسطاً طيباً ، ومع ذلك لم يساعدها التعلم على التغلب على طباع
آل جوردن وأخلاقهم الموروثة . وعُرفت بالحدة والمزاج الناري ،
فإذا غضبت أفلت زمام لسانها ، فتنهال على ضحيتها بأقذع
الشتائم وأخش الكلمات ، ثم تتناول كل ما تصل إليه يدها من

أوان وأطباق وتحطمها على الأرض في جنون . وعلى الرغم من خلقها الردىء كانت عزيزة النفس ، شديدة الكبرياء ، وبذلك « جمعت بين صفات النبلاء وأخلاق السوق وطباعهم » .

وتزوجت كاترين جوردن من جون بايرون ، فلم يمض عامان حتى بدد الزوج ثروة زوجته ، وتركها فقيرة مفلسة لا تملك في الحياة إلا معاشاً سنوياً لا يزيد على مائة وخمسين جنيهًا ! وتبينت هذه الحقيقة يوماً ، فلم تثر ، ولم تغضب ، ولم تحطم صحنًا ؛ بل أذعنت للأمر الواقع ، ولأنها كانت تحب زوجها حباً بالغاً تقبلت الفقر في وقار وشجاعة وهدوء . وفي أوائل عام ١٧٨٨ وضعت طفلها الأول والوحيد جورج جوردن بايرون .

وعند ما بلغ الصبي عامين من عمره ، أخذته أمه وسافرت إلى اسكتلندا . فلقد كانت تحن إلى وطنها الذى تربعت فيه يوماً على عرش الثروة والجاه . وفي مدينة أبردين استأجرت مسكنًا صغيراً عاشت فيه مع ابنها الصغير وخادمتها ماى جراى . وأحس جون بايرون أنه أدى في الحياة واجبه الأكمل : بأن بدد ثروة زوجته وجاء بولد يرفع لواء الأسرة من بعده ، فهجر

مسز بايرون ، وسافر إلى فرنسا ، وعاش ما تبقى له من العمر
في فلانسين ...

كان بايرون الصغير آية من آيات الجمال : شعره الذهبي
الصقيل ينهدل في خصلات متموجة فوق جبينه ، وعيناه الرماديتان
تتحركان بين أهداب طويلة غزيرة ، شفاته قرمزيتان ، وأنفه
دقيق حاد . ولكن لعنة الأسرة أثبت إلا أن تتبع الصغير في مهده ،
فولد بقدم معوجة كان لها أكبر الأثر في حياته كلها . ونشأ
عن تلك العاهة عرج ملحوظ في سيره .

وكان المنتظر أن تحوط مسز بايرون ابنها الوحيد بعطفها ورعايتها
مادامت قد فقدت الزوج الذي أحبته وضحت بالكثير من أجله .
ولكن دماء جوردن لم تترك مجالا للعطف والرعاية . وزاد الأمور
تعقيداً حزنها المكبوت على ما حل بها من فقر وتقصّف لم تعرفهما
أو تعتدهما من قبل ؛ فأصبحت حياتها سلسلة غضبات جنونية ،
تتعالى خلالها صرخات يسمعهما السائران في الطريق ، ثم يتبع
ذلك تحطيم الصحون وتمزيق الثياب . وذاق بايرون الصغير
الأمرين ، وفتحت عيناه على مشاجرات حامية الوطيس ، وبذل

قبيلات الأم الناعمة قامى الكلمات الخشنة الموجهة . ومنذ طفولته انصب في أذنيه سيل الإهانات الجارحة التى تكن فى القلوب ، فلا تستطيع الأيام محوها . وفى ذات يوم ثارت ثائرة مسز بايرون فجرت خلف الصغير صائحة : « صه ، أيها الأعرج » . ومادت الأرض تحت قدميه لعظم الإهانة ، وتقلص وجهه حزناً وألماً ، فقد كان يغفر لها كل شيء إلا أن تعيِّره بعاهته ، ولكنه كتم غيظه وأجاب فى جمود :

— هكذا ولدت يا أمه .

وعند ما اختلى فى حجرته أمسك بصحن صينى وقضمه بأسنانه فكسر جزءاً كبيراً منه . وتكررت الإهانة بعد ذلك ، ولكنه تعلم درساً ، وهو ألا يترك لحزنه أو ألمه مجالاً للظهور ، حتى لا يشفى غليل أمه القاسية . وكبت عواطفه فى قلبه وقابل ثوراتها بعد ذلك ببرود يزيد غصباً وجنوناً . ولكن بذور الكراهية انغرس وتأصلت فى نفسه نحو من جعلت طفولته جحيماً ، وظلت تلك الكراهية تنمو وتترعرع ، حتى آخر أيام حياتها .

ولم يكن بايرون الصغير بالحلم الوديع ، ولم يكن من المعقول أن تذهب دماء جوردن وبايرون هباء . فعرف كأجداده بالمزاج

النارى والغضب الحاد ، ولكنه كان غضباً صامتاً مكبوتاً ، لا يجد منفذاً للظهور . ومثل هذا الغضب يأكل القلوب ، ويتعس النفوس ، ويجعل من الحياة عذاباً مقمياً . ولو كان بايرون الصغير من النوع الذى يطلق العنان لآلامه خلفت حدة تلك الآلام ، وتغير مجرى تاريخه القصير الحافل . ولكن الطبيعة شاءت أن تخلقه هكذا ، ليمتلئ قلبه بالبغضاء للمجتمع ، والحقد على الناس . وتلفت فى طفولته حوله ، فلم يجد ما يدعو إلى التفاؤل أو السرور فأمه تعذبه ، وقدمه العرجاء تجذب نحوه الأنظار ، وفقره المدقع يمنعه من أن يعيش حياة الأسر النبيلة العريقة التى انحدر منها . وعندما بلغ الرابعة من عمره ، جاءت الأخبار من فرنسا تحمل نعى والده فى فلانسمين وشاء جاك المجنون أن يخلف لزوجته ما تذكره به ، فترك لها ديوناً جديدة دفعتها صاغرة ، فانخفض معاشها السنوى إلى مائة وعشرين جنياً . وخيم على الأسرة فقر مضاعف فتركت مسز بايرون بيتها القديم فى أبردين ، واستعاضت عنه بشقة صغيرة ليس فيها من الرياش إلا القليل . واقتطعت الكثير من ضروريات الحياة لترسل ابنها إلى مدرسة حقيرة لا تزيد مصروفات الفصل الدرامى فيها على خمسة شلنات . وفى

هذه المدرسة تلقى وريث لقب اللوردية علومه الأولى ، ولكن
 قسوة الحياة لم تنسه والده ، فحزن على وفاته ، وظل يذكره دائماً
 بالحب والعطف على الرغم من أنه لم ينعم بالعيش في ظله إلا قليلاً ،
 وأحس بفراغ ووحشة بين أمه المجنونة ومربيته القاسية
 ماى جرای .

وانقضت الشهور والأعوام في حزن وشقاء ، ففي كل صباح
 يذهب إلى المدرسة فيسخر الأطفال من عرجه ، ويعذبونه بذكر
 عاهته ، فيجربى خلفهم ليؤذبههم ، ولكن قدمه كانت كثيراً
 ما تعوقه عن اللحاق بهم والانتقام منهم . ويعود إلى بيته كاسف
 البال فتقابل به مسز بايرون بعاصفة من الضجيج والسباب . وفي
 المساء يحضر مدرسه الخصوصى پاترسون ليعلمه الدين ، ويلقى x
 عليه محاضرات طويلة في فلسفة الخالق والمخلوق : فحياة الإنسان
 مقدورة عليه قبل ولادته ، فمن أراد الله له خيراً عاش حياته
 طاهراً شريفاً ، ومن أراد له الشر خبط في ظلمات الرذيلة والخطيئة ،
 والمرء يقضى عمره سائراً في الطريق الذى رسم له من قبل .
 وعندما ينصرف المدرس يجلس الصبي واجماً مفكراً يتساءل
 عن حكمة هذه الفلسفة ، ونصيحتها من الرحمة والعدل . فإذا كان

الإنسان يعيش كما شاء له الخالق أن يعيش فأى جريرة عليه بعد ذلك؟ ولماذا يعذب في الحياة الأخرى ، ويزوق نيران الجحيم؟ ولماذا التفرقة بين الناس ، وكلهم عبيد الله الخاضعون؟ ولماذا يتعس البعض ويسعد الآخرون ، والجميع آلات مسيرة لاختيرة؟ ثم يفكر في نفسه : ترى ماذا قدر الله له؟ أمن أصحاب الجنة هو أم من أبناء الجحيم؟ وتتردد هذه الأسئلة في ذهنه ، فلا يجد عقله الصغير القاصر إجابة عنها ، فذب التشكك في عقيدته ، واهتز إيمانه ، وإذا تداعت العقيدة في الطفولة وانهار الإيمان ، فلا سبيل إلى الإصلاح بعد ذلك .

وفي هذه الحالة النفسانية يأوى الصبي إلى فراشه كل ليلة ، فتنبهه مربيته ماى جرى ، وتحذثه بتاريخ أسرة أمه وأسرة أبيه ، وأن دماء الجنون والإجرام تجرى في عروقه من الجهتين ، ولعنة الله تنصب على آبائه وأجداده فتقودهم جميعاً إلى الانتحار ، والقتل والشروع . وتؤكد له أنه مهما أتى من خير فقد حق العذاب عليه من أجل أخطاء من ولدوه . ولم تكتف المربية بذلك ، بل كانت تحذثه عن الشيطان والأشباح ، لئلا تفسه بالرعب ، فيستسلم للنعاس سريعاً ولا يقلقها ، ثم تطفى الأنوار ، وتتركه في ظلام

دامس وتخرج للمسرات والملاذ . وتكون النتيجة أن يتملكه
 الرعب فلا يستطيع النوم ، ويقوم من فراشه خائفاً ، ويخرج من
 البيت جرياً كالجنون ، ويقف عند أول نور يصادفه في الطريق
 ويبقى هكذا حتى مطلع الفجر وعندما يشتد الصقيع والبرد يعود
 مرتجفاً إلى فراشه .

وحين بلغ بايرون الثامنة من عمره أصيب بالحمى القرمزية ،
 فأخذته أمه وسافرت به إلى جبال اسكتلندة ، فرأى للمرة الأولى
 الجبال الشاهقة ، والحقول الواسعة المترامية ، وانطبقت صورها
 الجميلة في قلبه ، وبقيت عالقة بذهنه مدى الحياة ، وتردد ذكرها
 في قصائده الأولى التي كتبها في مقتبل الشباب .

ولما عوفي بايرون ، واستعاد صحته وعافيته ، عاد إلى حياة
 أبردين المؤلمة للملة . ولكن قبساً من النور أضاء الكون حوله ،
 فقد عرف فتاة صغيرة اسمها ماري داف ، وهي جميلة الوجه ،
 رخيمة الصوت ، خضراء العينين . وبادلها الحب وهو في الثامنة
 من عمره ، وشغف بها إلى حد أقلق أمه ومعارفه ، وظل يذكرها
 أعواماً عدة بعد الفراق . وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره —
 وكان قد ترك أبردين ، وماري داف منذ عهد بعيد — أخبرته مسز

بايرون أنها تلقت خطاباً من أديبره يقول إن حبيبته القديمة ماري تزوجت من تاجر معروف ، فزعج بايرون ، وتقلص وجهه ، وارتمى على مقعد بجواره ، وامتلات عيناه بآيات الحزن البليغ حتى أخاف أمه . وبعد سنوات عدة كتب يصف هذا الموقف :
 ” في الواقع لا أستطيع أن أصف أو أفسر شعوري في تلك اللحظة ، ولكن حزني بلغ حداً أزعج والدتي ، وجعلها عندما تحسنت حالتى فيما بعد تتجنب الإشارة إلى الموضوع ، وتسلى نفسها بقصه على أصدقائها . كنا طفلين لا أكثر ، وأجيبنا بعدها خمسين مرة ، ومع ذلك مازلت أذكر أحاديثنا الرقيقة ، وتقاطيعها الجميلة ، قلقى وأرقى ، إلحاحى على خادمة أمى لتكتب لى خطاباً أرسله إليها .“

ومثل هذا الحب عجيب ولا شك فى طفل لم يبلغ التاسعة من عمره بعد ، وهو دليل على الحساسية المرفهة العميقة التى تكمن فى صدر هذا الصبى ، والتى تجلت فى مواقف كثيرة فى حياته ، وصيرت رجولته طوراً من التعذيب الطويل .



وما بلغ بايرون العاشرة من عمره حتى جاءت الأنباء بموت

« اللورد الشرير » ، فأصبح جورج جوردن الصغير لورد بايرون السادس ، سيد نيوسايد ، وصاحب ممتلكات روشديل الواسعة . فلما بلغه الخبر أسرع إلى المرأة وتأمل وجهه جيداً فلم يجد فرقاً ما ، فذهب إلى أمه حائراً يسألها : أترى فيه تغيراً بعد أن أصبح من النبلاء ؟ ! ولكنه عرف الفرق في صباح اليوم التالي حين ذهب إلى المدرسة ، فنادى الناظر اسمه مقروناً بلقبه الجديد . وعقدت الدهشة لسانه فلم يستطع الجواب ، وعند ما اتجهت إليه عيون زملائه دهشة أجهدت بالبكاء .

ولم يكن لورد بايرون الصغير يعرف عمه الشرير إلا بالاسم فقط ، فقد شاء الرجل الشيخ أن يحرم أسرته كلها ماله وعطفه . وقضى أعوامه الأخيرة في تبديد الثروة وتخريب الممتلكات ، ولكن الصبي كان يعرف الكثير من شروره وآثامه ، وفي كل ليلة تحدثه ماي جراى بجديد من حوادث جنونه وإجرامه ، فأحس أنه ورث مركزاً محملاً بالسمعة السيئة ، كما ورث ثروة يخيمها الفقر ويحوطها الإفلاس ، ومع ذلك امتلأ قلبه بالفخر والخيلاء ، فسيرفعه لقبه الجديد فوق أقرانه وخلانه ، وسيدشغل الناس به عن تأمل قدمه العرجاء ، والتحسر على فقره المدقع .

ومن يدري ؟ ربما فتح هذا اللقب عهدا جديدا في حياته ينسبه
ما لاقاه في طفولته الأولى .

وقررت مسز بايرون أن تهجر اسكتلندة ، وتعيش مع ابنها
في ممتلكاته الجديدة ، فجمعت رياشها القليل ، وباعته بثمن
زهيد ، وأخذت اللورد الصغير ومر بيته وسافرت إلى نيوسايد .

٢

لم تستطع مسز بايرون أن تعيش في نيوسايد ، فالخراب
والدمار يسودان حجرات القصر وأبهاء العدة ، ومظاهر انتقام
العم الشرير تتجلى في كل ركن ، وكل منمطف . وكان إصلاح
المكان يتطلب أموالاً طائلة لا طاقة لها بها ؛ ولذلك استأجرت
بيتاً صغيراً في نوتنجهام ، ووكلت عن ابنها محامياً اسمه هانسون ،
وسافرت إلى لندن ، لعلها تستطيع أن تنتزع من مجلس الوصاية
معاشاً للورد الصغير . وبقي بايرون وحيدا في صحبة ماى جراى .
وكانت الحياة في نوتنجهام صدمة شديدة لبايرون . وأمام
الحقيقة المرة انحدرت آماله من عليائها ، وتلاشت أحلام القصور

والخدم والحشم . وعادت أيام أبردين بآلامها وأحزانها . وزاد
 البلاء بغيبة أمه فلم يعد هناك رقيب يحد من قسوة ماى جرای .
 وتضاعف طغيان المربية ، فكانت تضربه على مرأى من الناس ،
 وتقوده معها إلى الخانات ، لتحتسى الخمر . وفي الليل تجلب
 الرجال إلى حجرته ، وتطارحهم الحب تحت أنظاره وأسماعه .
 ويبدو أن القدر أراد للصبي شقاء دائماً ، فقد ضاقت أمه
 بعرجه ذرعاً ، وصممت على أن تعالج عاهته ، ولذلك أمرت
 بتسليمه إلى طبيب دجال اسمه لافندر . ولم يكن لافندر دجالاً
 فحسب ، بل كان أيضاً وحشاً لا مثيل لقسوته ، فكان يرسله إلى
 الخانات ، ليحلب له أقداح الجمعة . وفي كل يوم يرى أهل
 نوتنجهام منظرًا فريداً : يرون اللورد الصغير ، سيد نيوسايد
 وصاحب روشديل ، يعرج في الطرقات ، وهو يحمل القدح
 في حذر خشية أن يسكبه ، فينال عقاب الدجال !

وتتلخص طريقة العلاج في أن يدلك الدجال قدم الصبي
 بالزيت ، ثم يضعها في آلة خشبية ، ويضغط المفصل ، ويلويه
 بتلك الآلة . وتدوم العملية الوحشية ساعات طوالاً . ومن أجل
 أن يشغله عن الآلام يعطيه الكتاب المقدس ، ويأمره أن يقرأ

بعض آياته بصوت مرتفع طيلة الوقت. ولم يُجد العلاج إلا في تعذيبه.
وتبينت الأم هذه الحقيقة بعد شهور ، فاستردت ابنها منه ،
وخرج بايرون بأثر جديد في نفسه لم تستطع الأيام أن تمحوه ،
وهو نفوره من الكتاب المقدس الذي اقترنت آياته في ذهنه
بذكرى عذاب لاؤنذر الطويل . وهكذا تضافرت الظروف على
تحطيم إيمانه ، وعقيدته ، واحترامه لمبادئ الدين .

تمكنت مسز بايرون بفضل سعيها المتواصل من أن تحصل
لابنها على معاش قدره ثلثمائة جنيه كل سنة ، وتحسنت حالتها
المالية بفضل هذا المبلغ الجديد ، فهجرت نوتنجهام ، واتجهت
إلى لندن ، وأصبحت الحالة ماسة للعناية بتعليم بايرون ، فاختار
الحامى هانسون لعميله مدرسة أنيقة ، يديرها الدكتور جلينى
في ضاحية وولوتش ، ثم أقنع لورد كارليل بقبول الوصاية عليه .
وطابت الأمور من كل الجهات : فالوصى كبير الثروة عظيم الجاه
والنفوذ ، وباستطاعته أن يقود بايرون إلى المسكنة التى تناسب
لقبه وأسرته . والدكتور جلينى مرب فاضل ذكى وفى مقدوره
أن يصوغ شخصية الصبي وأخلاقه فى القالب المرغوب . وسعد

بايرون بذلك ، وانتعشت الآمال في قلبه من جديد ، وبدأ يحلم
بالراحة والهدوء والاستقرار ، ويرسم خطط المستقبل ، ويبني
قصور الأمانى .

ولكن مسز بايرون لم تدع فرصة لعطف الناس على ابنها .
فهاجمت كارليل وأذاقته من القحة ألوانا حتى ندم الرجل على
قبوله الوصاية ، وحقد على الصبي الذى جلب له متاعب كان
فى غنى عنها ، وقرر ألا يرعاه بعد ذلك أو يتدخل فى شئونه .
ولم يقتصر شرها على الوصى بل تعداه إلى المدرسة ، فتدخلت
فى حياته الدراسية تدخلا معيبا . وإذا اعترض الناظر على تغييبه
يوما أبقت ابنها فى البيت أياما ، وإذا اقترح شيئا جديدا
حضرت إلى المدرسة غاضبة ثائرة ، وترن صرخاتها وشتاتها
فى أرجائها وتصل إلى أسماع التلاميذ . وحدث ذات يوم أن
تجمع الطلبة حول بايرون بعد معركة من معاركها الحامية ، وقال
أحدهم له :

— بايرون ، أمك مجنونة ، ولا شك .

فأجابه الصبي واجها :

— أعرف ذلك !

وتكررت هذه المواقف ، فحزن المسكين حزناً بليغاً ، وبعد أن كان يكرها فقط ، أصبح يحتقرها أيضاً . وفي كل ليلة يأوى إلى فراشه واجماً متسائلاً لماذا لم ينشأ يتيماً الأم والأب معاً ؟ ثم يستعيد أطوار حياته ، فيحقق على من اتعست طفولته وأشقت صباه ، وسودت أيامه . ونما الحقد وترعرع على مرور الزمن ، واتسع ميدانه فشمل الدنيا والمجتمع والأقدار .

وعندما بلغ بايرون الثالثة عشرة من عمره أحب للمرة الثانية : ففي خلال عطلة المدرسية قابل قريبته مرجريت باركر ، وأعجب بجمالها الخلاب ، وحسنها الفريد ، وخلقه الرقيق ، وبددت صحبتها بعض آلامه ، وأضاءت بسماها ظلمات نفسه ، ومن أجل تمجيدها حاول أن يقرض الشعر . ولكن مارجريت ماتت بعد عامين من تعارفهما فحزن عليها حزناً بالغاً ، وبعد أن زار قبرها كتب قصيدة كانت فاتحة حياته الشعرية :

« عند ما ذهبت لأزور قبر مارجريت ، »

« وأثر الورود على تراب من أحب ، »

« سكنت الرياح ، وهذا الليل ، »

« وأبى النسيم أن يداعب الأشجار . »

« وفي حفير ضيق رقد جسده »

« تفجر يوما بالحويوة والشباب ، »

« ولكن ملك الرعب أطبق على ضحيته ، »

« ولن يستطيع مال أو جمال أن يردها إلى . »

وظل يذكرها طيلة حياته ، وقال في وصفها بعد ذلك

بعشرين عاماً :

— " كأنها صنعت من قوس قزح ... كلها جمال وسلام . "

في ذلك العام أعلنت مسز بايرون راية العصيان على مدرسة الدكتور جلينى ، ومنعت ابنها من الذهاب إليها بدعوى فساد طريقة التعليم فيها . وبعد مباحثات طويلة تقرر أن يذهب إلى « هارو » . وفي ذات صباح ذهب هانسون وبايرون إلى المدرسة الجديدة ، وقابلا عميدها الدكتور درورى . وما كاد العميد يخطئ قليلاً بطالبه الجديد حتى تبين في الحال أنه « حصان جامح يجب أن يروضه بخيط حريرى » ! ولكنه تبين فيه أيضاً ذكاء متقدماً وروحاً فياضاً إلى عجب وكبرياء .

وانخرط الصبي في المدرسة كثيراً ، فهارو معهد أبناء النبلاء ،

وهو نبيل أيضاً إنما بالاسم فقط . وكل الناس يعرف فقره ،
 ونشأته المتواضعة ؛ ولذلك لن يستطيع أن يرتفع إلى مستوى
 زملائه ، أو ينال منهم ما يطمح إليه من احترام وتبجيل . فضلا
 عن أن قدمه العرجاء ستلفت أنظار الصبية إليه ، وسيعا كسونه
 بها ، فيتألم ويشقى ؛ فقرر أن يبدأ بالعدوان ، ويتكبر ويتعاضم
 على من معه ، لعل الكبرياء والعظمة تسدلان ستاراً بينهم
 وبين نقائصه . ولازمته هاتان الصفتان طيلة حياته بعد ذلك ،
 مما نفر قلوب الكثيرين منه .

وانتضى العام الدراسي الأول بين مشاجرات ، ووحدة ،
 ووجوم . وعند ما أقبلت العطلة المدرسية ، سافر إلى قصر
 نيوسايد ، ونزل ضيفاً فيه على لورد جراى الذى كان قد استأجر
 المكان أخيراً . وهناك عرف فتاة جديدة هى ماري شاوارث
 حفيدة النبيل الذى قتله اللورد الشرير فى مبارزة غير عادلة .
 وكانت ماري جميلة الوجه ، سوداء الشعر والعينين ، رائعة
 البسمات ، خليعة الحركات ؛ فضلا عن أنها فى السابعة عشرة من
 عمرها ، وهو ما زال فى الخامسة عشرة . وغرق بايرون فى حبها
 إلى أذنيه ، وأودع فيها مثله العليا وآماله العدة . ولكن ماري

لم تكن تحبه في الواقع ، فهو يصغرها سناً ، وكان بدين الجسم لم يكتمل بعد جماله الذي طبقت شهرته الآفاق . وأخفت الفتاة عنه شعورها ، واستسلمت لمغازلاته ، وتقبلت حبه كفرض يجب عليه أن يؤديه نحوها ، وفي نفس الوقت وعدت شاباً ثرياً ، اسمه چون ماسترز بالزواج . وتمتعت بحب الاثنين في حكمة وحذر ، فلما انتهت العطلة المدرسية ، رفض بايرون العودة إلى هارو ، وصمم على البقاء بجوار حبيبته ، وحاول هانسون ، كما حاولت الأم أن ينتظم في سلك دراسته فلم يقبل . لقد كان يتعطش دائماً إلى الحب والعطف الذين حرهما منذ طفولته ، ولقد وجدهما أخيراً فلا سبيل إلى الفراق .

وانقضى الفصل الدراسي الأول على هذا الحال ؛ ولكن حدث ذات مساء أن كتب قصيدة لحبيبته ، وأسرع في الصباح إلى قصرها ، ليتلوها عليها . وعند ما اقترب من الشرفة سمعها تتحدث مع خادمتها في صوت مرتفع ، وتقول عنه :

— أنظنين أنني أهتم بهذا الأعرج ؟ !

وتسمر بايرون في مكانه ومادت الأرض تحت قدميه ، وظل واقفاً برهة قصيرة ، ثم عاد يجري إلى قصر نيوستيد

كالجنون . وقضى اليوم كله وحيداً في حجرتة ، وفي اليوم التالي أعد حقايبه وعاد إلى المدرسة . وقضى حديث ماري على البقية الباقية من ثقته بالنساء ، وإنهاء إيمانه في ذلك الجنس الذي يصفونه ظالماً باللطيف ، وحكم على كل امرأة حكمه على أمه ومربيته وحبيبته القاسية ؛ وكرس حياته بعد ذلك للانتقام ؛ ولكنه ظل يحب ماري في قلبه ، ولم ينسها على مضي السنوات ، وإن بقي أثر قسوتها ، ومن أجل هذا الأثر ذقت النساء على يديه الأمرين .



عاد بايرون إلى مدرسة هارو ، وبعودته بدأ عهد جديد في حياته الدراسية . فقد اعتاد الطلبة عرجه ، ولم تعد عاهته تلفت أنظارهم أو تثير اهتمامهم ؛ وأحبه الزملاء لشجاعته وإقدامه ، ومناصرته للضعفاء منهم والصغار . وبرع في السباحة وركوب الخيل ، مما زاد مكانته احتراماً وتبجيلاً ، وتذوق الصداقة للمرة الأولى ، فثار قلبه الحساس ، وشعوره المزهق ، وغالى في تلك الصداقة وأمرق ، حتى سبب المتاعب لإدارة المدرسة ، فطلبوا إليه الخروج منها . ولولا تدخل هانسون ولورد كارليل لطرده منها أشنع طردة . وبقي يحفظ ود أصدقائه هؤلاء ، وذكرهم في قصائد

عدة . ولقد مات الأصدقاء واحداً إثر واحد ، فثار قلبه وتشاءم ، وبدأ يشعر أن اللعنة البايرونية تتبعه ، فتحرمه من أحبابه ، وتبقى على أعدائه . وعند ما بلغ الثالثة والعشرين كتب في يومياته يقول : « هناك لعنة تحوم حول رأسى » . وقال مرة أخرى وهو فى الحادية والثلاثين : « لم أستطع أبداً أن أبقى على قيد الحياة حتى كلبا أحييته » . وتمكن منه هذا التشاؤم ، وأصبح على مر الأعوام إيماناً لا يتزعزع .

وفى عهد هارو الأخير توترت العلاقات بينه وبين أمه إلى حد خطير . فقد كانت مسز بايرون تضربه على الرغم من أنه دخل فى طور الرجولة ، فأصبح يحتقرها ويكرهها ، ويحقد عليها ، ويزدريها ، ويخاف العطلات المدرسية التى تجمع بينهما . واشتدت به الحاجة إلى من يفتح له صدره ، ويشركه فى آلامه ، فلم يجد إلا أخته أوجستا ابنة جون بايرون من زوجته الأولى فرانسيس كارمارذن ، ولم يكن قد رآها فى حياته ، لأنها عاشت فى رعاية جدتها لأمها التى حرمت عليها الاتصال بزوجة أبيها المجنونة . وكتب لأخته دون سابق معرفة ، فنشأت بين الاثنين صداقة شديدة خلال المراسلات . وفى خطاباتهما جعل يسكب لها آلام

نفسه ، ويشكو لها أمه بأسلوب نثرى رائع . وأرسل لها مرة يقول : « يتملكنى الرعب لقرب أيام العطلة » وفي خطاب آخر يقول : « أأسمى هذه المرأة أمّاً ؟ هل قدر على أن أغمر بالشتائم ، وأساق بالإهانات ، وتجرح كبريائى لأنفه الأسباب ؟ إننى مدين لها بالاحترام كابن ، ولـكنى أنكرها كصديقة . » وتقابل الأخوان بعد ذلك ، فوجدت أوجستا فيه صبياً بديناً حساساً ، ولما رآته للمرة الثانية بعد ذلك بسنوات كان شخصاً مختلفاً لا يمت إلى الأول بصلة .

وأتّم بايرون دراسته فى هارو ، وتخرج منها وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وتركها حزينا أسفا ؛ فلقد تربّع فيها على عرش الزعامة وعرف قيمة الصداقة ، وأحب التلال المجاورة ، والأشجار العالية التى تحيط بها ، والقبور الهادئة . وفى اليوم الأخير صعد التل إلى حديقة الكنيسة ، وودّع القبر الذى اعتاد أن يجلس بجواره كل يوم .

* * *

فى شهر اكتوبر عام ١٨٠٥ دخل بايرون جامعة كمبردج ، وهو فى أشد حالات الأسى ؛ فلقد انتهت مرحلة من حياته ،

ولا يعلم إلا الله كيف تنتهى هذه المرحلة الجديدة ؛ وقرر مجلس الوصاية إذ ذاك أن يرفع راتبه السنوى إلى خمسمائة جنيه ، حتى يبلغ سن الرشد ، وفرح بايرون بهذا القرار الذى سيحرره من استعباد أمه ؛ فاستأجر فى كبردج شقة أنيقة ، وأثاثها برياش ثمين يتناسب مع مركزه . واشترى حصانا ، وجلب إلى البيت خادما يعنى به ، ولم يلبث أن زايله الحزن ، واندمج فى حياته الجديدة بحماس وشغف .

وكانت الحياة فى كبردج غير ما كانت عليه فى هارو : فالطلبة لا يعيرون الدراسة إلا اهتماما قليلا ، ويقضون جل وقتهم فى السباحة والمقامرة ، ومعاقرة الخمر . وكان بايرون يحب السباحة ، ويتقنها ، ولكنه يكره المقامرة ، ولا يحتسى الخمر ، ومع ذلك اندمج فى الرذيلتين ليساير الطلبة ، ويعيش حياتهم . وعلى الرغم من بيته الأنيق ، وخمره المعتقةبقى وحيدا لا صديق له ، وابتعد الزملاء عنه ، وعابوا عليه تعاظمه الذى لا يبرره داع ، ولكن ظهر صديق فى حياته فجأة اسمه « ادلستون » ، وهو شاب جميل الصورة ، نحيف القوام ، أسود الشعر داكن العينين . وبدأت المعرفة بأن أنقذه بايرون من الغرق ، ومنذ هذا اليوم ارتبط

الاثنان بصداقة هجينة أخذت شكلاً عاطفياً قوياً . وهبط الوحي على شاعرنا ، فكتب القصائد في صديقه . وفي ذات يوم أهداه إداستون قلباً صغيراً عاجياً ، فأرسله إلى أمه ، وطلب منها أن تحفظه له . ولكن اللعنة البايرونية تبعث ذلك الصديق أيضاً فمات بالسل بعد سنوات قليلة ، وحزن بايرون عليه ، واسترد القلب العاجي من أمه ، فلما عاد القلب مكسوراً تشاءم جداً ، وظل التشاؤم يطارده مدة من الزمن .

ولم يظهر بايرون عبقرية في حياته الدراسية ؛ فلقد كان أبداً كسلاً يقرأ جميع الكتب إلا الضروري منها لدراسته . وزاد الطين بلة أن بدأ جماله يكتمل ، فتملكه الغرور وجعل يرعى ذلك الجمال ، ويتفانى في إظهاره بتصفيف الشعر وأناقة الثياب . وضايقته البدانة التي تفسد الكثير من حسنه فحاربها بكل الطرق ، حتى اكتسب قواماً نحيفاً رشيقاً . وانقضت الليالي بين كئوس الخمر وقرض الشعر ، ومع ذلك كان وحيداً حزيناً في قرارة قلبه ، فأخته أوجستا بعيدة عنه ، وزيارة أمه كدخول الجحيم ، والطبقة الراقية في انجلترا لا تتصل أو تعترف به ، وزملاؤه في الجامعة يرقبونه من بعيد ويعجبون لغروره وتعاضمه .

وكانت نتيجة هذه الوحدة النفسانية أن انعكس في الملاذ ، وكلما حاول أن يكبح جماح نفسه ، تمرغ أكثر في المجون والاستهتار. وأصبح نهباً لصراع عجيب بين الحالة التي انعكس فيها ، والحالة التي يتمنى أن يسير عليها ؛ وعندما يبلغ الصراع أقصاه يجلس إلى أوراقه ، وينظم الشعر ، حتى يعاوده الهدوء .

واقترنت قصائده بادیء الأمر على محيط معارفه وأصدقائه ولم يحاول نشرها ، ولكنه فكر في جمع ما كتبه وطبعه ، في ديوان صغير تحت عنوان « ساعات الكسل » . وظهر الديوان في شهر أغسطس سنة ١٨٠٦ ، ونال نجاحاً عظيماً على الرغم من نسخه المحدودة . وفعل الديوان في كبردج مالم يفعله شيء من قبل ؛ واتجهت الأنظار إلى الشاعر الشاب ، وتجمع الطلبة حوله يخطبون وده . وتصادق بايرون وزميل اسمه جون كام هو هوبهاوس الذي شاء القدر أن يلزمه في كل ما حدث بعد ذلك .

وفي هذا الجو الساحر الجميل تورط بايرون في الإسراف والنفقات ، ولم يعد راتبه يكفي مطالب حياته البذخة ، وأراد الآن — وقد أصبح شاعراً — أن يعيش كأهل طبقته ، فجعل يبعثر النقود يميناً وشمالاً على الخمر والميسر والنساء . وعند ما تنتهي

نقوده ، يلجأ إلى المرابين فيقرضونه أملاً في استرداد أموالهم مضاعفة ، عند ما يبلغ سن الرشد . وتراكت عليه الديون حتى أغضبت أمه وأربكت محاميه هانسون . وهكذا لم يجلب ديوان « ساعات الكسل » له غير الديون الكثيرة والصدقات القليلة .

ولكن في بدء عام ١٨٠٨ ظهرت فجأة مقالة في مجلة أدنبره تنقد « ساعات الكسل » ، وكانت هذه المجلة قوية منتشرة يتردد صوته في كل مكان ، وعرف صاحبها هذه القوة فاستغلها استغلالاً معيباً . وانصب شرها الآن على شاب صغير يبدأ حياته الشعرية ، لتحطيمه وتلويث اسمه . ولم يقتصر المقال على النقد فقط بل تعداه إلى التحقير والسباب .

وعندما قرأ بايرون المقال اسودت الدنيا في وجهه ، وجرت دماء جوردن وبايرون حارة في عروقه ، وتملكه غضب جنوني ظل يذكّره إلى مماته . وقضى أتعس يوم مر في حياته ؛ وفي المساء أغلق على نفسه الحجر ، وشرب ثلاث زجاجات من الخمر ، ثم أكب على الأوراق يكتب حتى عاوده الهدوء ؛ وانتوى أن يرد على ناقيده بقصيدة جديدة يفرغ فيها أبلغ عبارات الانتقام .

ومن أجل أن يكون انتقامه رائعاً قرر أن لا يتعجل في الرد ، وأن يكتب في هدوء وتأنٍ ، ليبلغ شعره أعلى درجات السمو والكمال فيكون سلاحه حاداً قاتلاً .

وفي أواخر عام ١٨٠٨ حاز بايرون إجازة الماجستير من جامعة كمبردج فأنهت صلاته بالجامعة ، وفارقها غير آسف أو مأسوف عليه

كان الوقت قد حان لأن يتسلم بايرون ممتلكاته ببلوغه سن الرشد ؛ فسافر إلى نيوسايد ليعيش في قصر أجداده ، وهناك وجد البيت في حالة إهمال شديد : فالخديقة جذباء ، والحجرات مهدمة ، والقذارة سائدة . وكان إصلاح المكان يقوده حتماً إلى الخراب ؛ ولذلك اكتفى بإعداد بضع حجرات له ولأصدقائه ، وترك بقية القصر على حاله ؛ ورفض أن يسمح لأمه أن تشاركه في السكنى لاختلافهما في الطباع ، ولأنه كان ينوى أن يتمتع بحياة لا يصح أن تراها عين الأم .

وفي هذا المكان الهادئ ، وبين الحدائق الواسعة ، والحقول المترامية ، عاش بايرون وحيداً يقضى يومه في السباحة ، وتدريب

كلبه العزيز «بوتسوين» ؛ ويقضى ليله في شرب الخمر وإعداد قصيدة انتقامه من مجلة إدنبره . ولم يحاول جيرانه أن يزوروه ، ولم يحاول هو أن يتعرف بهم . فاشتدت به الوحدة وتملكه السأم ، فجمع حوله بضع خادومات جميلات للعناية ببيته ومتعته . وأرسل يدعو بعض أصدقاء الجامعة لزيارته ، فكان چون كام هوپهاوس أول من لبى الدعوة ؛ وقضى الاثنان معاً أياماً جميلة بين المتع والشعر ؛ ولكن المصائب بدأ وابلها ينصب عليه : فمرض الكلب العزيز بالصرع ، وعالجه بايرون بنفسه ، ومسح الزبد عن فمه بيديه ، وظل الحيوان المسكين وفيّاً إلى النهاية فلم يعرض سيده أو يعتدى عليه ؛ وبين ذراعى بايرون لفظ «بوتسوين» الروح ومات . وكان حب بايرون للحيوانات يفوق الحد ؛ ولذلك حزن عليه حزناً شديداً ، ودفنه في قبر صغير في نيوسستيد ، وأبدى رغبته في أن يدفن بجواره ، وقرر أيضاً أن يدفن خادمه العجوز «مري» في نفس القبر . وعند ما سمع مري ذلك قال :

— لو أنني كنت واثقاً من أن سيدي اللورد سيرقد معي لأحببت أن أدفن هنا ، ولكنني أكره أن أنام وحدي مع الكلب !

وعلى قبر « بوتسوين » كتب بايرون هذه الكلمات :

« في هذا المكان يرقد جسد امتك جمالاً دون غرور ،
« وقوة دون خشونة ، وشجاعة دون وحشية ،
« بل امتك كل فضائل الإنسان دون رذائله .
« وما هذا المديح - الذي لو كتب على قبر آدمي
« لكان ملقاً زائفاً - إلا شهادة صدق في ذكرى الكلب بوتسوين »

وقبل أن يتغلب بايرون على حزنه ، وصلته دعوة من جارته
ماري شوارث التي كانت قد تزوجت من جون ماسترز وتعتست
في زواجها . وفي هذه الدعوة طلبت إليه أن يزورها ، وتردد
كثيراً قبل أن يذهب ، ولكن رغبته الجامحة في أن يرى حبيبته
القاسية مرة أخرى تغلبت ، فذهب إلى زيارتها ، وما كاد يراها
حتى تحرك حبه القديم ، وتضاعف سخطه على الدنيا ، واشتد نفوره
من الحياة التي يحياها . وفي خلال هذه الزيارة قدمت له ابنتها
الصغيرة ، فدمى بقلبه الجرح ثانية ، وعند ما انصرف من لديها
كتب قصيدة جميلة يصف فيها تلك المقابلة ويقول فيها :

« عندما رأيت أخيراً طفلتك المحبوبة ، ظننت أن الغيرة ستعظم قبلي ،
« ولكن عند ما ابتسمت الصغيرة في براءة ، قبلتها من أجل أمها . »

« قبلتها وكتمت آهاتي ، فقد رأيت في وجهها ملامح أيها ، ولكن كان »
 « لها عينا أمها التي أحبها وأعبدها . وظننت أن الزمن والكبرياء »
 « قد أخذوا شعلة غرامي الصباني ، ولم أعرف حتى جلست بجوارك »
 « أن قلبي — عدا الأمل — كما كان . »

وأحس بايرون أن بقاءه في نيوسايد على مقربة من
 ماري شاوارث خطر على قلبه ، فقرر أن يهرب من موطن
 الإغراء ، ويسافر إلى بلد بعيد ؛ وسمعت هي بذلك فأرسلت إليه
 تسأله سبب رحيله ، فأجاب في قصيدة يقول :

« عندما طرد الإنسان من حرم النعيم ، تلكاً عند بابه »
 « لحظة يذكر سعادة خالية ، فثار على حظه ولعن »
 « الأيام القادمة . ولكن عند ما جال في بلاد أخرى »
 « تعلم كيف يحتمل الألم . ووجد عزاء في حياته »
 « الجديدة ، فتنهّد فقط لذكرى القديم . هذا هو حاله ، »
 « ولن أرى سحرك مرة أخرى ، ففي البقاء عذابي ، »
 « وفي قربك حسرة دائمة . سأكون حكيمًا إن رحلت ، »
 « وهربت بعيداً عن الإغراء ، فلا أستطيع أن أرى »
 « جنتي ، ولا أرغب العيش فيها من جديد . »

قرر بايرون أن يترك إنجلترا ، ولكن كان عليه أن يتم انتقامه قبل الرحيل ، فجعل يكتب قصيدة رد على ناقيديه ، وحمل فيها على الكتاب الانجليز والنقاد الاسكتلنديين ؛ وكان الشعر في ذاته قوياً رائعاً ولكن السب شديد مقذع . ولم يقصر غضبه على من أساءوا إليه ، بل تناول أيضاً أعظم شعراء ذلك العهد وأكبر كتابه ؛ وعند ما انتهى من عمله سافر إلى لندن لطبعه ، وللإستعداد لدخول البرلمان ، واحتلال مكانه في مجلس اللوردات .

وكانت العادة المتبعة في البلاد أن يذهب اللورد الجديد أول يوم الى المجلس في رفقة أحد كبار الأعضاء ؛ فالتجأ بايرون إلى وصيه السابق لورد كارليل ، ولكنه تخلص منه وتهرب من هذه المهمة ، فاضطر إلى الذهاب وحيداً . وعند ما انصرف من المجلس أضاف إلى قصيدته قطعة شديدة عن كارليل ليشفي غليله .

وبعد دخول المجلس بأسبوعين ظهر الديوان ونال إقبالاً ، ولكن الرأي العام ثار على المؤلف ثورة غاضبة من أجل الشتائم

التي كالمها جزافاً لخيرة الناس . وتكهرب الجو من حوله ، واقتضت الظروف أن يبتعد ، ويسافر من البلاد مشرعاً ، ولم يكن لديه مال للرحيل فاقترض أربعة آلاف من الجنيهات ضاعف بها ديونه .

وقبل سفره بيوم أرسل يدعو أصدقاءه ليودعهم ، فاعتذر الكل بمختلف الأعذار التافهة ، وقضى ليلته وحيداً . واشتد سخطه على المجتمع ، وتحطمت ثقته بالأصدقاء ، ورحل في اليوم التالي دون أن يرى أمه أو يودع أخته أو جستا . واكتفى بأن أرسل خطاباً إلى مسز بايرون يقول فيه :

« سأبحر بعد أيام قليلة ، وقبل أن يصلك هذا الخطاب ؛ وسأترك إنجلترا غير آسف ، ودون أية رغبة في رؤيتها مرة ثانية . »

في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه عام ١٨٠٩
وقف بايرون على ظهر سفينة السكايتن « كيد » يتأمل البحر
بوجه جامد وعين حاملة ، واستعاد الماضي إلى ذهنه صورة صورة
فانقبض صدره : تذكر طفولة مليئة بالعذاب والآلام ، وأما
لا تختلف كثيراً عن الشيطان ، وحياة كلها صراع وكفاح ، ومجتمعاً
لا يقوم إلا على الزيف والنفاق . تذكر ماى جراى وهى تتلقفه
من يد والدته لتزيد تعسه وشقاوته ، ولافتندر الدجال بعلاجه
الوحشى الطويل ، ومارى شاوارث الخداعة القاسية ، وما رجريت
باركر فى قبرها الهادى البعيد ، ثم قصيدة هجائه وما سببته من
غضب وثورة . وتساءل عن حكمة هذا الغضب ، وسبب تلك
الثورة : ألم يبدأ النقاد بالعدوان ؟ ؟ ألم تتناولهُ أقلام الكتاب
بالسخرية والسباب لا لسبب إلا كتابة الشعر ؟ ؟ وعند ما يرد
العدوان بمثله ، وينتقم لنفسه ، يشور المجتمع هكذا غاضباً عليه !!
ولكنه لن يتقهقر حتى لو انقلب العالم رأساً على عقب ، وما
دامت الأقدار قد حكمت على حياته أن تكون هكذا ، فليتحداً

الأقدار وليقف ثابتاً ليؤلم الكل ، ويغضب الكل ، ويحزن الكل . وسيهجر هذا الوطن القاسى إلى أوطان أخرى بعيدة ،
ففى الترحال شفاء للنفوس وبلسم للجراح .

وفى هذه الحالة النفسانية الثائرة سافر بايرون من انجلترا ،
وأقنع فى رفقة صديقه هوپهاوس وخادمه فليتشى إلى رحلة يعلم
الله أمدها ، وإلى بلاد قد يجد فيها السلام والاطمئنان . ونبتت
فى ذهنه فكرة شعرية جديدة : وهى أن يكتب قصيدة طويلة
يصف فيها حالته عند الرحيل ، وتجاربه العدة فى مختلف الأوطان
والأقطار . وأكب على أوراقه ينظم قصة « الطفل هارولد »
واتجه إلى البرتغال ؛ وفى لشبونة تبدد حزنه وتذوق السعادة لأنه
كما قال « يحب البرتقال ، ويتكلم مع الرهبان بلاتينية سقيمة ،
ويذهب إلى المجتمعات ، ويشتم الناس باللغة البرتغالية ! » ومن
هذا المكان ذهب إلى اشبيلية فانغمس فى الملاذ بضعف آل
بايرون المهود ، وأرسل إلى أمه خطاباً يصف فيه نساء هذه
البلاد : « عند ما تتزوج المرأة تلقى بكل القيود والتحفظات ؛
وإذا تقدم الإنسان إلى فتاة إسبانية بعرض من النوع الذى يعتبر
إهانة فى انجلترا وينال صاحبه عادة لكمة من أشد العذارى

خلاعة ، فإنها تشكره للشرف الذى يسبغه عليها وتقول : انتظر حتى أتزوج وعندئذ يسعدنى أن أجيئك ! »

وفى مدينة قادس تعرف بأسرة الأدميرال كوردوفا فأحب ابنته الجميلة ، وغازها بمساعدة القاموس لجهله باللغة الإسبانية . وعندما طلبت منه أن يهدى إليها ماسته الصفراء العريضة ، رفض وافترق الاثنان غاضبين . ولكن الماسة لم تبق فى أصبعه طويلا ، وأهداها بعد ذلك إلى مسز سبنسر التى تركت فى نفسه أثرا جيلا فمجدها فى شعره لشرفها وعفتها ، وظل يذكرها حتى وصل إلى أثينا ، وهناك زال سحرها أمام امرأة جديدة هى « تريزا ماكرى » ، أو عذراء أثينا كما كان يسميها فى قصيدته :

« عذراء أثينا . . . ردىّ إلى قلبي قبل الرحيل ، »

« ولكن قلبي قد هجر صدرى إذن فأليك باقيه ، »

« واسمعى قسمى قبل أن نفترق ... حياتى ، إننى أحبك »

وبعد أن انتهت زيارته لأثينا ، اتجه نحو ألبانيا . وكانت تلك البلاد فى ذلك العهد مجهولة لدى الناس ، فصمم على الذهاب إليها ، وتعرف ما خفى من حياتها وأعجب بها أشد الإعجاب ، وأحب على باشا والى يانينا ، وصادق قبائل السوليوت الذين

عرفوا بالخشونة والوحشية ، ثم عاد إلى اليونان وهو يحمل أجمل
الذكريات لتلك البلاد التي أكرمت وفادته ؛ وفي مدينة بتراس
أصيب بحمى الملاريا وأشرف على الموت لولا عناية الله .

وفي خلال هذه الرحلة كان بايرون حريصاً على تأدية واجبين
أولهما كتابة الشعر ؛ فأنتم قصيدة الطفل هارولد ، ووصف فيها
كل شيء منذ رحيله من إنجلترا ، بل وصف أيضاً حالته
النفسية قبل السفر ؛ ونالت مسز بايرون نصيبها ؛ وكذلك أخته
أوجستا التي لم يرها ولم يودعها قبل رحيله :

« كان للطفل هارولد أم لم ينسها ، »

« ولكنه تجنب رؤيتها ووداعها ، »

« وكان له أخت أحبها ، »

« ولكنه لم يرها قبل الرحيل . »

وذكر الأصدقاء الذين اعتذروا عن وداعه بما يستحقون :

« لم يجبه أحد ، وإن اجتمع في بيته مختلف الماجنين »

« عبيد الساعة المرحة ، وطفليات إذا أذن الرحيل . »

ووصف الشاعر أيضاً في قصيدته جبال ألبانيا الشاهقة ، وامتدح

سكان تلك المناطق الذين يتمتعون بقسط ضئيل من المدنية ،

و بنصيب عظيم من الحرية والاستقلال . وحيثا فيهم الشرف
والأنفة والكبرياء . أما بلاد اليونان فقد عاب في شعره على
أهلها خضوعهم للذل والعبودية ، واستسلامهم للأتراك ، وذكرهم
بتاريخ وطنهم المجيد ، وجعل ينعى اليونان القديمة الخالدة :

« يونان الجميلة ... أيتها الخرائب الحزينة لمجد ذهب ؛ »

« إنك خالدة وإن تداعيت ... عظيمة وإن هويت ، »

« فمن لك بقائد يجمع شمل أولادك المشتتين ، »

« ويحطم عن معصميك قيود الذل والاستعباد ؟ ! »

ثم يهيب بالناس أن يستيقظوا ويجهدوا بأنفسهم في
سبيل التحرير :

« ألا تعلمون ، أيها المستعبدون ، أن من يطلب الحرية يضرب بيده »

« ويميمنه يكتسب الفخر ؟ أو تظنون أن الفرنسي أو الروسي »

« يصلح ما فسد ؟ نعم ... قد يهزمان لكم الظالم ، ولكنكم لن »

« تنالوا نحر الحرية ، وشرف الجهاد . »

وعند ما انتهى من هذه القصيدة كتب أخرى يهجو بها
لندن ومن فيها تحت عنوان « لعنة مينرثا » و « ملاحظات
من هوراس » .

أما الواجب الثاني الذي حرص بايرون على تأديته خلال الرحلة فهو المداومة على مراسلة أمه ؛ فكتب إليها باستمرار يحدثها عن مشاهداته ومخاطراته ، ولم يكن ذلك معناه أن البعد أنساه قسوتها أو غير شعوره نحوها... كلا... وإنما كتب إليها لأنه لم يجد من يرسله غيرها . وظل شعوره على حاله بدليل أن لورد سليجو قابله في اليونان ، ولاحظ كراهيته لأمه ، فلما سأله السبب ، قال بايرون :

— سأحدثك يوماً عن سبب هذا الشعور .

وبعد أيام قليلة خرج الصديقان للسباحة ، فأشار الشاعر إلى قدمه العرجاء ، وقال في مرارة :

— أنظر ؟ هذه العاهة نشأت عن خشوتها عند ولادتي ،

ومع ذلك ظلت طيلة حياتي تعيّرني بها ؛ وقبل أن نفترق تشاجرت معي ، ولعننتي ، ودعت الله أن يشوه عقلي كما شوه قدمي !

وفي هذه الرحلة عرف بايرون صبيّاً من أبناء اليونان اسمه « نقولا چيروود » ، وبدأت المعرفة بحجة تعلم اللغة الإيطالية ، ثم انقلبت إلى صداقة حارة ، على الرغم من اختلافهما في السن ،

والأخلاق ، والمركز الاجتماعي . وعند سفره منح الصبي مبلغاً كبيراً من المال .

وبعد أن قضى بايرون في رحلته ما يقرب من العامين ارتبكت حالته المالية ارتباكاً شديداً ، وألح الدائنون على هانسون في لندن ، وأصبحت الحاجة ماسة لبيع نيوستيدي وتسديد الديون ، وتواتت الخطابات من إنجلترا تطلب عودته ، فاضطر إلى السفر كارهاً . وفي اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨١١ كان شاعرنا في مالطا يستقل السفينة إلى وطنه ، وكتب في خطاب يقول :

— « إنني عائد إلى الوطن دون أمل ودون رغبة . »

عاد بايرون إلى لندن ، فأبصر أصدقاءه إلى استقباله ، وعلى رأسهم هوبهاوس ودالاس الذي اعتاد أن يسهل له طبع أشعاره ، ومن الخطابات القليلة التي وصلتهم منه توقعوا أن يروه حزيناً ، ضيق الصدر . ولكنهم وجدوه مرحاً سعيداً على غير ما ذكر في خطباته . وعند ما استقر به المقام في فندق ريديش ، سأله دالاس أنظم شيئاً خلال رحلته ، فأعطاه « ملاحظات من

هوراس « ؛ ولما لم تعجبه أعطاه ديوان « الطفل هارولد » كارهاً
 لأنه كان يعتقد أن هذه القصيدة ضعيفة مملة ، ولكن دالاس
 قرأها ، فأخذ بحمائها وروعتها ، وأعجب بالأسلوب الجديد الذي
 صيغت به ، وبالروح القوي الفياض الذي ينبعث من الأبيات .
 وعرف أن قصيدة الطفل هارولد ستحدث في البلاد ذجة لاختلافها
 عما عرف من قبل ، فصمم على طبعها ، وبعد أخذ ورد قبل
 بايرون طبع الديوان .

ومضت الأيام في لندن دون أن يفكر في السفر إلى أمه
 في نيوسايد لزيارتها بعد غيبته الطويلة ؛ واكتفى بأن أرسل
 لها خطاباً يعتذر فيه عن التأخر ، ولكن مسز بايرون ماتت بعد
 وصول الخطاب فلم تر ابنها . وكانت وفاتها بإحدى غضباتها
 المشهورة ، فقد هاجمها الدائنون يوماً ، فثارت ثورتها ، وانفجر
 شريان في رأسها ، وبذلك انتهت حياتها الصاخبة .

وأسرع بايرون إلى نيوسايد حين بلغه نعيها ، فوجد أمه جثة
 هامدة على فراشها . وفي تلك الليلة مرت إحدى الخادومات
 فسمعت أنيناً في حجرة الميتة ، وعند ما دخلت وجدت الابن
 يبكي بجوار الفراش ، وحاولت أن تخفف عنه بكلمات التشجيع

والعزاء ، فأجابها والدموع تنهمر من عينيه :

— كان لى صديق واحد فى هذه الدنيا ، وها هو قد ذهب .

فهل كانت مسز بايرون حقيقة صديقه الوحيد ؟ كلا بالطبع !

وكل ما فى الأمر أنه شاب عاطفى حساس إلى درجة غير عادية ؛

وكما سمع بموت إنسان أو حيوان يعرفه استسلم للحزن واعتبره

صديقه الوحيد فى الحياة . هكذا فعل مع مارجريت باركر ،

ومع كلبه بوتسوين ، ومع أمه الحمقاء .

ولم يدم حزن بايرون على أمه طويلاً ؛ ففي صباح اليوم التالى

دهشت نفس الخادمة عند ما رآته يرفض السير وراء جثمانها عند

تشيعه ، ويأبى الاشتراك فى الجنازة . وعند ما خرج نعشها من

البيت ، اقتصر على الوقوف فى البهو يرقب ابتعاده ، وقبل أن

يختفى عن ناظره أمر بإعداد القفازات ليقوم بتمرينه اليومى فى

الملاكمة ؛ ولكن الممرن لاحظ شرود ذهنه ، وشدة ضرباته على

غير المعتاد ؛ وخفاة رآه يلقى القفاز جانباً ، ويخرج مسرعاً ،

ويختفى بقية اليوم فى حجراته .

وأبت الظروف إلا أن تضاعف من مضايقات بايرون ،

فقد ظهرت مقالة فى إحدى الجرائد تحت عنوان « لورد بايرون »

كتبها صحفى أهين في ديوان المهجاء منذ عامين ، فلما سمع بعودته
كتب المقال لينتقم من شأته . وأطلق على الشاعر مختلف النعوت
فسماه « الابن غير الشرعى » و « الوارث لقاتل » و « العر بيد
الحقير » و « ابن امرأة قضت أيامها في هذيان الثملة » .

وفي غمرة حزنه على أمه ، وغضبه من المقال ، علم أن ولاية
الأمر يعارضون في طبع « الطفل هارولد » بسبب إلحاد مايتناول
الروح وخلودها ، ثم طفح الكيل عند ما سمع بفراق صديق له .
وجن جنون بايرون ، وثارت نأثرته على الدنيا ، والأقدار والناس ،
فكتب وصيته المشهورة التى أمر فيها بأن يدفن بجوار كلبه
بوتسوين ، وألا يصلى أحد على جثمانه ، وأن تباع نيوسستيد
ويرسل ثمنها إلى الصبي نقولا جيروود فى اليونان !

ولكن المصائب عادت تتراكم دفعة واحدة ثم تتفرق كذلك
دفعة واحدة : فقد تغلب دالاس على اعتراض ولاية الأمور ،
وطبع الديوان ، وظهر فى اليوم العاشر من شهر مارس عام ١٨١٢ ،
ونال الكتاب نجاحاً منقطع النظير ؛ فأقبل الناس على قراءته ،
واشتروا مئات النسخ منه . وتآلق اسم المؤلف فجأة فى سماء الشهرة
وأصبح لورد بايرون موضوع حديث الناس ، وسعى الكل إلى

معرفته ، وفتحت أبواب القصور أمامه ، وسجدت النساء
لجلاله ، فقال جلته الماثورة :

— استيقظت ذات صباح فوجدت نفسى شهيراً .

وطابت الأمور ، وهذأت نفسه ، ولكنه خرج من تلك
التجربة القاسية بصفات جديدة ، وهى صلابة القلب ، وموت
العاطفة والإحساس ؛ فما لا شك فيه أن الأحران إذا هصرت
القلوب دفعة واحدة ، تركتها حطاماً بالياً ، وقتلت فى نفوس
أصحابها القدرة على الألم وتقدير النكبات ، والشعور المرفف
الدقيق . وهكذا كان الحال مع شاعرنا : فقد تذوق أشد أنواع
الألم ، فهان كل ألم عليه ، وترزعع إيمانه فى الأقدار فتحداه ؛
وامتلاً قلبه بالاحتقار للناس ، فعاش بعد ذلك للانتقام منهم .
ولما يئس من أن يجد من يحبه أحب هو نفسه ، وجعل من
شخصه موضع عنايته واهتمامه ، وقضى الأيام فى عبادة هذا
الشخص وإشباع رغباته وملاذه .

لا شك أن ديوان « الطفل هارولد » جلب لبايرون الكثير
من المتع التى لم يعرفها ، أو يتذوقها من قبل ، ولكنها كانت

متعاً زائلة ، تشبه الأيام في تقلبها والأعوام في دورتها . ولعل
 الأمر الوحيد الذي اكتسبه حقيقة هو صداقته الجديدة للشاعر
 توماس مور : ولقد بدأت العلاقة بين الاثنين بأن عرض بايرون
 به في هجائه ، فغضب مور وصمم على أن يمحو الإهانة بالدماء ،
 فأرسل خطاباً إلى شاتمه يطلب مبارزته ، ولكن الخطاب وصل
 بعد سفر بايرون إلى اليونان فلم يتسلمه . وبقى المظروف مغلقاً في
 مكتب المحامي هانسون خلال غيبته . فلما عاد بايرون ، وعرف
 محتويات رسالة مور ، كتب إليه في الحال يشرح سبب التأخر
 في الرد ، ويظهر استعدادَه للمبارزة إذا كانت الرغبة ما زالت
 متوافرة . ولم تكن الرغبة إذ ذاك متوافرة : إذ تزوج توماس مور
 وأنجب طفلاً ، فتغيرت وجهات نظره ، وغلت حياته . وانتهى
 الأمر بأن توسط بعض الأصدقاء بينهما وجمعوهما للمرة الأولى
 معاً ، وخرج الاثنان من الاجتماع على أتم صفاء وتفاهم ، وربطتهما
 الصداقة معاً برباط بقي قوياً خالصاً إلى النهاية .

هبطت الشهرة المفاجئة على بايرون ، وهو في الرابعة والعشرين من عمره . وكان إذ ذاك قد اكتمل جماله ، وبلغ حسنه درجة تأخذ بمجامع القلوب : فشعره كسنتأني غزير يتهدل في تموجات طبيعية رائعة ؛ وقوامه نحيف رشيق ، وجلده باهت شفاف كأنه من البلور ... فمه صغير ممتلئ الشفاه ، وعينه زرقاوان يشوبهما ظل رمادي ، وصوته موسيقي رخيم حتى سماه الأطفال « الرجل الذي يتحدث كالموسيقى » . ولما كان بايرون قد أصبح — كما ذكرنا — موضع عبادة نفسه وتقديسها فقد رعى ذلك الجمال وتعهده بعناية فائقة . وعند ما تفتحت أبواب القصور أمامه ، لم يهبط على من فيها شاعر عظيم فحسب ، بل هبط أيضاً وجه ملائكي خرت له النساء ساجدات .

ودخل المجتمعات الجديدة بقلب حديدي ، أفقدته الآلام حساسيته ورقته ، وأقبل على معارفه الجدد بسخرية لازعة واحتقار أمتهم صدمات المجتمع وغدر الناس ؛ فانتوى أن يقبل على الظروف الحديثة ليستفيد لا أن يفيد ، ويمتص رحيقها الحلو

ثم يلتقى بما يتبقى في غير أسف أو رحمة . وبين يدي هذا الرجل
الذى طاردته الظروف ، وأورثته الحوادث قسوة بالغة ، سقطت
ليدى كارولين لامب وهى تخبط فى مجاهل حب خطير .

ولدت ليدى كارولين من أب غنى ، وتقلبت على فراش
ذهبي ، فلم تر من الحياة إلا ناحيتها البراقة . ومرضت أمها بعد
ولادتها بزمن قصير ، فعاشت الصغيرة فى رعاية خالتها دوقة
ديفونشير ، وتربت وترعرعت فى رفقة أولاد هذه الخالة ؛ ولم
يكن فى كل انجلترا أطفال أهملت تربيتهم كأطفال الدوقة ،
وبين هؤلاء نالت كارولين قسطاً وافراً من الإهمال والتربية
الفاسدة . . .

ولاحظت جدتها ليدى سينسر البيئة الخطيرة التى تعيش فيها
حفيدتها ، فانتزعتها منها وضمتها إلى أحضانها ، وحاولت جهودها
أن تصلح ما فسد ؛ ولكنها لاحظت فى الفتاة شذوذاً دعا إلى
استشارة الأطباء فى حالتها ؛ وقرر الأطباء أن كارولين عصبية
المزاج إلى حد خطير ؛ ولذلك يجب ألا تجهد بتعلم أو تثقيف ،
ونصحوا ببقائها على مبعدة من الناس ، وإلا انتهى أمرها

بالجنون . وكانت النتيجة أن بلغت الفتاة سن العاشرة قبل أن تتعلم القراءة والكتابة ، وتلقت دروسها الأولى وهي في الخامسة عشرة فأظهرت ذكاءً فذاً ، وأتقنت اللغات القديمة والحديثة ، وبرعت في الموسيقى والرسم ، ولكنها ظلت على شذوذها ؛ فلم تكن تعنى بهندامها أو بسلوكها .

وتعرفت وهي في الخامسة عشرة من عمرها بوليم لامب ابن ليدى ملبورن الشهيرة ، فأحبته ولكنها رفضت الزواج منه لحول اسمه إذ ذاك . ولم يمض وقت طويل ، حتى تألق اسمه في سماء الشهرة ، وأصبح الوارث الوحيد للقب لورد ملبورن ، وتقدم إليها ثمانية فقبلت الزواج منه وهي في الثامنة عشرة من عمرها . وفي يوم الزواج تشاجرت مع القس ومزقت ثوب عرسها ، وسقطت في بهو الكنيسة مغمى عليها ! وحملها الناس هكذا إلى بيتها الجديد ، وهمس الكل قائلين : ” لن يدوم هذا الزواج ! ” وتألق اسم كارولين لامب في سماء مجتمعات لندن الأنيقة ، وأصبح بيتها ملتقى النبلاء والأدباء والشعراء ، وتجمعت حولها القلوب لرشاقتها وشذوذها . وأنجبت أطفالاً لم يعيش منهم إلا صبي واحد .

وعند ما بلغت الرابعة والعشرين من عمرها ظهر ديوان
« الطفل هارولد » ، فاشتريت النسخة الأولى منه وقرأتها ،
فأعجبت بالجرأة الأدبية التي تسود أبياتها ، والروح الحزين الذي
يطغى على الكلمات ، والموسيقى الشعرية الرقيقة . وأبت رغبتها
إلا أن ترى المؤلف ، ولكن صديقه مور أراد أن يثبط عزيمتها ،
فقال لها :

— إن بايرون قبيح الشكل ، ملتوى القدم ، يقضم أظفاره
كالبلهاء !

فصمت على مقابلته ولو كان في « قبح الشيطان » .
وقابلته فعلا في بيت صديقة لها فما إن رأت وجهه وهو يقترب
منها حتى ارتدت على أعقابها ، وأبت أن تصافحه . وفي هذه
الليلة كتبت عنه في يومياتها تقول :

« مجنون . . . شرير . . . من الخطر معرفته » .

ولكن هاتفا ما جعلها تضيف :

« هذا الوجه الجميل الباهت قد قدر على » .

وبعد يومين قابلته مرة أخرى فتعرفت به ، ودعته إلى
زيارتها في قصر ملبورن حيث تعيش مع حماها ليدي ملبورن .

وبعد الزيارة الأولى أصبح لورد بايرون هو الضيف اليومي لهذه الأسرة .

واقتصرت العلاقة بادي الأمر على حب أفلاطوني برىء ؛ فكان يقضى الصباح معها في حجرة الاستقبال ، يداعب طفلها ويحدثها عن نفسه ، ويرسم لها صورته في الشكل الذي يعجبها ؛ وحدثها بأجداده وباللعنة التي تطارد كل من ينتمى إلى أسرته ، ووصف لها حزنه الدائم ، وإيمانه المتداعي ، واحتقاره للمجتمع والناس ، فلم ترتدع ، بل زادت حباً له . ولم يمض وقت طويل حتى غرقت في حبه إلى أذنيها ، فهاجمته ، وطاردته ، وفرضت نفسها عليه حتى بادلها الحب كارهاً .

وكان بايرون يعرف نقائصها جيداً ، ويحب زوجها ويحترمه ؛ فاتصل بها وقد امتلأ قلبه باحتقارها وازدراءها ، وتعجب في نفسه كيف تخون هذه المرأة زوجاً كريماً طيباً ، ولكن ضعف آل بايرون وحيوانية أخلاقهم حالادون ابتعاده عنها . وإذا قام الحب على أسس من الاحتقار فلا سبيل إلى السعادة بعد ذلك ، وهذا ما حدث بالضبط ، فقد اتخذها خليلية ولكنه سامها أنواع النذل والمهانة . وزادتها القسوة جنوناً على جنون ، وحباً على حب .

فكان إذا غضب منها يوماً وقفت أمام بيته في الطريق العام
إلى مطلع الفجر ، تنتظر عودته لتسأله الصبح والغفران . وإذا
دعى إلى حفلة دونها ، وقفت بجوار عربته تحت الأمطار
المساقطة ، لتمتع النظر برؤيته عند انصرافه . وتقمم بيته علانية ،
وتكاتب خدمه ليسهلوا لها سبيل الدخول في زى خادم . وهكذا
كانت السيدة النبيلة تحط من قدرها ، فتزيد احتقار عشيقها لها
وبقى وليم لامب يرقب طيش زوجته في سكون ؛ فقد كان
يحبها ولا يستطيع فراقها . ولم يتدخل خشية أن يثير التدخل
عنادها ، فتمعن في تصرفاتها وجنونها . وخيل إليه أن زوجته
تعانى الحمى البايرونية التى تفشت بين النساء أخيراً فألقت بهن
جميعاً تحت أقدام الشاعر الجميل ، وعند ما تزول هذه الحمى
وتهبط حرارتها ، ستعود كارولين إلى سابق عهدها وإخلاصها .
وفي بيت كارولين عرف بايرون حماتها الليدى ملبورن فأعجب
بعقلها وسعة تفكيرها ، وزالت الكلفة بين الاثنين ، فحدثها
بعلاقته بزوجة ابنها واحتقاره لطيشها ، وحدثته هى بامتعاضاها
من استهتارها ، وتحديها لتقاليد المجتمع وعرفه . ومنذ ذلك العهد
أصبحت ليدي ملبورن كاتمة سره ، يحدثها بكل ما يعتمل في قلبه ،

ويكاشفها بمختلف أسرارها مهما بلغت تلك الأسرار من خطر .
 واتفق بايرون مع ليدي ملبورن أن يضع حداً لعلاقته
 بكارولين ، فقد جاءت أمها لزيارتها بعد أن سمعت عنها مختلف
 القصص والأقويل ، ورأت أن تصحب ابنتها في رحلة إلى إيرلندا
 لتبعدها عن حبيبها ، وتخفف حدة الرأي العام . وبعد إلحاح
 خضعت كارولين وسافرت ، ولكنها ظلت تكتب لبايرون كل
 يوم ، تبثه لواعج شوقها ، وتهده بالعودة إن لم يجب رسائلها .
 ولم يجد أمامه سبيلاً للخلاص إلا الهرب من لندن ، فقبل دعوة
 آل أكسفورد ، وسافر إلى قصرهم في الريف . وهناك وقع
 تحت سحر ليدي أكسفورد ، فشجعتة على قطع علاقته نهائياً
 بكارولين ، وأملت عليه خطاباً أرسله إلى خليلته القديمة يقول فيه :
 « لم أعد أحبك . . . وما دمت تضطهدينني بتلك المطاردة
 التي لا تناسب الأنوثة ، فاعلمي إذن أنني متعلق بسيدة أخرى ،
 يمنعني الشرف من ذكر اسمها . . . وسأذكر بالشكر اللحظات
 العدة التي تمتعت فيها باهتمامك . . . وسأبقى دائماً صديقك ،
 إن سمحت لي أن أكون كذلك . وأول برهان على حسن
 مقصدي نصيحتي هذه : أصلح غرورك المزرى وانشرى

نزغاتك الشيطانية على غيري ، واتركيني في سلام .

شغل بايرون بحياته الجديدة عن كتابة الشعر ، وانقضت لياليه في الحفلات والمغازلات ، ومرت الشهور أولاً في صراع مع كارولين ؛ وثانياً في الخضوع لسحر ليدى أ كسفورد وجهاها ، فانقطع الوحي واستسلم للهو والدعة . وكانت هذه طبيعة بايرون الحقة : فإذا حزن وتألم فاض بالشعر قلمه في سهولة وقوة وعذوبة ، وإذا سعد وهدأت ثورته هدأ الوحي بهدوء نفسه وضعف بضعف ثورته . وظل على هذا الحال طوال حياته ، فسيجلت أيام الشقاء أروع قصائده وأكثرها خلوداً .

ومنذ عودته من رحلته حتى عام ١٨١٣ لم يكتب بايرون ما يستحق الذكر ، وكل ما نظمته قصيدة « القالس » وطبعها دون اسمه . وبعد ذلك كتب أولى قصائده الرومانتيكية « الكافر » ، وهي قصة شعرية تدور حول التكفير والتوبة ، فنرى الكافر يسرق زوجة حسن الذي يثار لشرفه المسلوب ، فيغرقهما ، أما الكافر فينجو ويعود لقتل حسن ؛ ثم يأوى إلى دير يقضى فيه بقية عمره في التكفير والتوبة .

وهذه القطعة أيضاً طبعت بطابع مؤلفها كما هو الحال في «الطفل هارولد» ، وكشفت عن وحدته النفسية ، وشعوره ضد الأقدار والبشر ، ونالت نجاحاً عظيماً لأن الناس قرأوا بين سطورها حوادث الشاعر نفسه وآراءه ومعتقداته .

في بادئ الأمر لم تقنع كارولين لامب بالهزيمة ، فأمطرت بايرون — كما ذكرنا — بالخطابات الحارة ، والتهديدات الشديدة . ولم تكثف بذلك بل التجأت إلى خليفتها ليدي أكسفورد ترجوها أن تتوسط لديه ، ليصفح عنها ، ويغفر لها طيشها ، ويعود إلى حبها ! . ولما وصلها خطابه الشديد انتهى صراعها ، وتداعت قوتها ، ومرضت مرضاً خطيراً كاد يودي بحياتها . وعند ما تماثلت للشفاء بلغ بها الضعف والهزال درجة أدهشت الناس . وعند عودتها إلى لندن ظلت ترجو وتلح في أن ترى حبيبها مرة أخيرة ، فأشفقت حماها ليدي ملبورن عليها ، واقترحت أن تتم المقابلة بشرط حضور شخص ثالث معهما . وطلب بايرون أن يكون الشخص الثالث هو ليدي أكسفورد ! . ولم تتم المقابلة بسبب هذا الشرط .

وجن جنون ليدي كارولين فأقامت حفلة كبيرة أحرقت فيها تمثالا صغيراً لحبيبها . ورقصت خادماؤها حول النيران ، وفي نهاية الرقص ألقت فيها خصلة شعره التي تحتفظ بها ، ونسخاً من خطابات ، وختمت الحفلة بقطعة شعرية من نظمها ، وأرسلت إليه تفاصيل هذا العمل الجنوني ، فازداد احتقاره ومقته لها .

ولم تنته المأساة عندها هذا الحد . ففي اليوم السادس من شهر يولييه عام ١٨١٣ أقامت إحدى النبيلات حفلة راقصة ، وتقابلت فيها كارولين مع بايرون ، فتبادلا بضع كلمات قاسية ، وانتهت بأن اختطفت سكيناً من فوق المائدة وشهرته في يدها ، فنظر إليها في احتقار وبرود وقال :

— هيا يا عزيزتي ، ولكن إذا كنت تلعبين دور البطولة ، فأحسني اختيار ضحية سكينك ؛ ولتكن الطعنة إلى قلبك أنت ، أما قلبي فقد طعنته كثيراً من قبل !

ثم دار على عقبه وترك الغرفة . لم يعرف المدعوون ما حدث بالضبط ، ولكنهم رأوا ليدي كارولين تجري بينهم ، والسكين في يمينها والدماء تسيل من ذراعها الأخرى ، ثم تمايلت وسقطت على الأرض مغمى عليها . وكان بايرون في ذلك الوقت يتحدث

مع إحدى السيدات في حجرة أخرى ؛ فلما سمع ما حدث قال
في برود :

— " العوبة أخرى من الأعياب المعهودة ! "

وبعد ساعات قليلة عرف أهل لندن جميعاً ما حدث ، وكتبت
الجراند القصة تحت عنوان « فضيحة كبرى » وثارَت نائرة
الرأى العام ، ومع ذلك عاد الشاعر يوماً إلى بيته ، فوجد ليدى
كارولين قد اقتحمته قبل حضوره ، وخطت على الصفحة الأولى
من كتاب من كتبه كلمة « اذكرنى » فتناول القلم وفي الحال
نظم تحت كلمتها قصيدته الشعرية المعروفة :

« أذكرى ... واذكرى ... حتى اليوم الذى تكون فيه »

« الجحيم مشواك ، أن الندم والعار لن يتركاك . »

« أذكرى ... واذكرى جيداً أن زوجك أيضاً لن ينسأك ، »

« فكلانا سوف يذكرك : خائنة له شيطانة لى . »

وفي خلال كل هذه المطاردات الجنونية ، كانت كراهية

بايرون لها واحتقاره إياها يزدادان ، ولازمه الشعوران طيلة

حياته ، فظل يذكرها بالشر إلى يوم مماته .

خرج بايرون من علاقته بكارولين منهك الأعصاب ثائر النفس ، وانضوى تحت لواء ليدى أكسفورد عسى أن يجد الهدوء . وسعد معها بعض الوقت ، وقرر أن يسافر في صحبتها إلى أوروبا ، ولكنه كشف أن الحبيبة الجديدة تشرك الكثيرين معه في قلبها ، فغضب الشاعر الشاب ، وعدل عن الرحيل .

وعاد إلى لندن حزينا كاسف البال ؛ فقد كان في الماضي ينمى فراغ حياته ، وحرمانه من العطف والحب . وظل منذ طفولته في بحث دائم عن هذا الحب ، وعند ما وجده أخيراً ذاق منه الأمرين . وهدمت الصدمات المتكررة بقية ثقته بالاجتمع ، وتضاعف احتقاره للبشر ، وزادت عقيدته إيماناً أن المرأة لا تعرف مبادئ الشرف والإخلاص . وفي غمرة ثورته النفسية الجديدة ، وصلته الأنباء بقرب وصول أخته لأبيه أوجستا .

كانت أوجستا بايرون قد تزوجت منذ سنوات بقريب لها اسمه « كولونيل لى » ، وهو رجل مقامر عرييد ، لم يرع للزواج حرمة ، فجعل ينفق نقوده بسخاء على الخمر والمقامرة والنساء .

وعندما أنجب أطفالا ثلاثة ، كانت الثروة قد تبددت ، وارتبكت حالته المالية مما دعا الزوجة إلى الرحيل . وعلى الرغم من خياناته المتكررة وإسرافه الشديد ظلت أوجستا أمينة على عهده تحبه وتخلص له ، وتعنى بأطفالها ، وتحسن على الفقراء وتساعد الضعفاء مما جمع القلوب حولها .

وفي شهر يونيه عام ١٨١٣ وصلت أوجستا إلى لندن ، واستقبلها بايرون فرحاً ، فلم يكن قد رآها في حياته إلا مرة واحدة منذ سنوات وأعجب بأخلاقتها البسيطة ، وثيابها الأنيقة ، وقوامها اللدن . وقارن في نفسه بينها وبين أمه الخشنة فازداد تعلقه بها .

ولم تكن أوجستا ذكية أو مثقفة ، بل هي محدودة التعلم ، بسيطة التفكير أقرب إلى الغباء منها إلى الذكاء ، وهي تمتاز بالمرح الدائم ، وخفة الروح ، والمهارة في تقليد الناس بطريقة مضحكة . وهي أيضاً فطرية إلى حد بعيد ، تحب كل شيء ولا تحب شيئاً ، لا تعرف من الحياة إلا ناحيتها المرحية البراقة ، وتعيش لحاضرها فقط ، فلا يهمها الماضي ولا تفكر في المستقبل .

ووجد بايرون في هذا اللون الجديد المثل الأعلى للمرأة التي

تعجبه . . . المرأة التي تعيش قانعة في حدود طبيعتها ولا تحاول الخروج عنها .

ولعل أعظم ما جذبها إليها هو التشابه الكبير بينهما في الخلق والخلق : فهي خجلة حيية تنفر من الناس وتميل إلى الوحدة ، وشعرها كستنائى مجعد كشره ، وفمها صغير ممتلىء الشفتين ، ولونها باهت شفاف . ودهش أن وجد شيئاً له في الحياة من حيث الشكل والأخلاق والطباع ، فجعل يتأمل هذا الشبيه بعجب وإعجاب .

وكانت حياة بايرون إلى هذه اللحظة خالية مجربة : ففي طفولته قامى الشقاء على يدي أمه ومربيته ، وفي المدرسة لقي العذاب بسبب عرجه وكبريائه . وفي عالم النساء منى بالصدمات ، وبين الأصدقاء رأى الخيانة والرياء . وتلفت حوله فلم يجد ما يحبه فأحب نفسه ، وجعل من شخصه معبوده الوحيد ، وقضى الأيام في إرضاء هذا المعبود وإشباع رغباته وملأذه . وفجأة وجد شيئاً لمعبوده ؛ شيئاً له في كل شيء ، فعبده دون أن يشعر ، وأشركه في حبه العظيم لنفسه . وهدأت نفسه في صحبتها ، فقد كانت تحبه لشخصه ، ولم تهتمها قدمه العرجاء ، ولم تأبه لفقره أيام

طفولته ، ولم يخفها شذوذه ، ولم ينفرها كفره وإلحاده ، وكلها أمور أبعدت قلوب غيرها من الناس عنه ؛ وملأت أوجستا فراغ حياته فكان يخرج في صحبتها خوراً ، ويقدمها إلى أصدقائه في تيه وإعجاب .

وبعد ثلاثة شهور عادت إلى بيت زوجها في « سيكس مايل بوتوم » .



عندما ابتعدت أوجستا اختلى بايرون بنفسه يناقشها الحساب فعاودته آلامه ، وتملكه حزن شديد ، وأقبل على الخمر عسى أن يهرب من ضميره ، ولكن ذلك الضمير أطبق عليه وطارده في كل مكان حتى على مائدة الشراب .

ودارت أفكاره حول العلاقات المحرمة ، ولم يستطع كبح جماح قلمه ولسانه : ففي الحفلات والمجتمعات يطرق موضوع هذه العلاقات ، ثم يدافع عنها في حرارة وقوة ؛ وعندما ينصرف ينظر الناس بعضهم إلى بعض في قلق ، وتشكك ، ودهشة . وبذلك فضح بايرون نفسه وأثار الشكوك نحوه بلسانه وكتاباتة ، وغرس بيده بذور الفضيحة التي قضت على سمعته فيما بعد .

وأكبّ بايرون على أوراقه يقرض الشعر كما هي عادته في كل ثورة نفسية . وانساب به القلم في سلاسة وعذوبة ، وتسالت آلام قلبه إلى القصائد فخرجت قطعاً فريدة في عالم الأدب . وأتم قصته الثانية « عروس أبيدوس » وهي قصة تركية تدور حول هذا الموضوع وبطلتها زليخا تحب أخاها سليماً :

« سليم ، يا أعز الأحباب ... خبرني ، أتكرهني أم تخشاني ؟ »
 « تعال ، وضع رأسك على صدرى فأقبلك حتى الهدوء والمنام »
 « أنظن أنني أحتمل فراقك ، فأشطر قلبي نصفين ؟ »
 « لو انتزعوك منى فقدت أنت حبيبتيك ، وفقدت أنا مرشدى ، »
 « ولم تعرف الدنيا ، ولن تعرف ، اللحظة التي تشقت بين روحينا ، »
 « وعند ما يهبط عزرائيل بصولجانه الخفيف ليفرق الأحباب »
 « سيميتنا حتماً ، ولكن ليتحد قلبانا في التراب . »
 وأتم هذه القصيدة في أسبوعين فقط ، مع أنها تبلغ مائتين وألفاً من الأبيات ، لأنها كانت صورة من حياته ، وطبعها ونشرها ، ووضع في الصفحة الأولى سطرًا يقول : « الجزء الأول مأخوذ من ملاحظات في حياتي » وبهذه الجملة أثبت شكوك الناس وأقاولهم .

ولم يمض وقت طويل حتى كتب قصة شعرية أخرى هي «القرصان» ، وبطلها كفراد يشبه تماماً : فهو خجول يميل إلى الوحدة ، وينفر من الناس . حكمت الأقدار عليه بالشر ، فاندفع إلى الجريمة دون رغبة أو إرادة . وتخدعه الحياة ، ثم تصدمه أحداثها ، فيعلن الحرب على المجتمع الذي يعيش فيه ، ومن أجل أجل أخطاء البعض يصب جام شره على الكل . وتعجم المصائب عوده ، فينكر التوبة ، ويزدرى التكفير ، ولا يطلب الغفران . ولا يرق قلب البطل الشيطان إلا لشخص واحد فقط هي حبيبته «ميدورا» .

وقدم هذه القصيدة أيضاً بجملة تفضح سره : « مأخوذة من تجارب شخصية » ، وتبعها بكلمات لتاسو : « أفكاره لا تستطيع الهدوء في قلبه » . وهكذا كان بايرون دائماً ضعيفاً ، لا يعرف السيطرة على لسانه أو قلبه ، عبقرياً في التحدث عن نفسه وأعماله ، فلقد شاعت الدنيا التي حرمتها الحب أن تصبح نفسه معبوده الوحيد .



وتطارت الإشاعات في أنحاء البلاد ، وضع المجتمع صاحباً

غاضباً ، وتناقل الناس كتاباته وأقواله التي يشير فيها إلى خطيئته :
وسرهم جميعاً أن يتلوث اسمه ، بعد أن أثار حوله الكراهية بعلاقاته
النسوية ، وكبريائه الشديدة ، وتحديه لسياسة البلاد بتمجيد
عدوها نابليون . وبدأ نجمه في الأفول رجلاً ، وفي الصعود
شاعراً . وأغلقت أبواب القصور أمامه ، ولكن كتبه نالت
أعظم درجات النجاح . ووقف بايرون يشهد هبوط مجده ،
فتحرك غضبه البايروني ، وازداد سخطه على الدنيا فتحداها
بجنون ، ومنح أخته ثلاثة آلاف من الجنيهات ، وكتب قصيدة
هي أجمل ما نظم في حياته :

- « حرام أن يجرى اسمك على لساني ، أو ينحطه قلبي ، »
« ففي نعماته حزني ، وفي قصتنا خطيئة ؛ »
« والدمع الذي يسيل على خدي فيحرقه ، »
« يعبر عما يخالج قلبي من أفكار حزينة ، »
« والساعات التي مرت بنا ، قصيرة لم تشمع لنا رغبة ، »
« طويـلة في تعذيبها للضمير . »
« فمتى تنقضي مرارة تلك الساعات وحلاوتها ؟ »
« لتكون السعادة من نصيبك ، ولتقع الخطيئة عليّ ، »

« فاغفرى أيتها المعبودة ، واحجى إن شئت ، »
 « ولكن قلبى الذى وهبته لك سيدى خالصاً ، »
 « ولن تحطمه الدنيا مهما فعلت . »
 « وستبقى نفسى فى ظلامها الحالك ذليلة لك ، »
 « ولوركم العالم تحت قدمى لما بلغ سعادة قربى منك . »
 « آهة منك تشقىنى ، ونظرة منك تسعدنى ، »
 « وستعجب الدنيا لما أضحيه ، فندعها جانباً ، ونواصل الحب . »

ولكن بايرون على الرغم من عناده وصلفه ، كان يتمنى لو استطاع الخلاص ؛ وفكر فى الزواج وسيلة لإنقاذه ، ثم تراكت الديون ، وتضاعفت أرقامها ، وازدادت إلى درجة خطيرة . وبعد تردد صمم على إتمام فكرته ، وقرر أن يربط حياته بحياة فتاة عاقلة غنية ، تنقذه بعقلها من جنونه ، وبمالها من ديونه ، فتقدم يخطب الأنسة « أنابيللا ميلبانكى » ابنة أخى صديقه وكاتمة سره ليدى ميلبورن ، وتزوج منها وهو فى السابعة والعشرين من عمره .

كانت أنابيلا ميلبانكى الابنة الوحيدة لسير رالف ميلبانكى شقيق ليدى ملبورن . ولدت وترعرعت فى قصر والدها فى الريف ، ونشأت بين أيدي قوية حكيمة ، فنالت قسطاً عظيماً من الثقافة ، وتشبعت بمبادئ الدين ، واشتهرت بين الناس بالتقوى والحكمة والهدوء ؛ وعند ما ظهر ديوان « الطفل هارولد » قرأته كغيرها ، وأعجبت به ؛ ثم سافرت إلى لندن لتقضى فيها بضعة أسابيع .

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٨١٢ أقامت كارولين لامب حفلة راقصة صباحية ، ودعت إليها خيرة المجتمع ، ومن بينهم أنابيلا ابنة خال زوجها . ووجدت الضيفة أن الجو الذى يسود المكان لا يناسب خلقها الهادىء ، فجلست عن كثب ترقب الجميع . ودخل بايرون ، فأحاطت به السيدات وتهافتن على خطب وده ، والتقرب إليه ، فلما جاء دور أنابيلا رفضت التعارف به ، خشية أن تنضم إلى زمرة المعجبات . وبعد بضعة أيام قابلته مرة ثانية ، فوجدته هادئاً خجولاً ، وتبادلا

الحديث ، فكان أول ما قاله أن أبدى دهشته الشديدة ، من أن تقبل الاتصال بمجتمع كهذا ” لا يقوى فرد فيه على مواجهة ضميره أو مناقشته الحساب ! “ ولم تمض دقائق معدودات حتى فتح لها قلبه ، وحدثها بآلامه ، وبكراهيته لمثل هذه المجتمعات ، وحبها للهدوء والوحدة . وأعجبها حديثه ، وتبينت فيه شخصاً آخر يختلف تمام الاختلاف عما سمعته من قبل . وانتهى الأمر عند هذا الحد ، وعادت أنابيل إلى الريف لتستأنف حياتها الساكنة . ولكنها لم تنسه ، فلما كتبت بضع قصائد صغيرة ، أرسلتها إلى كارولين ، وطلبت منها أن تستطلع رأى الشاعر الجميل فيما نظمته . وكانت إجابة بايرون : ” إنها فتاة ممتازة ، فمن كان يظن أن مظهرها الهادئ يخفى قوة كهذه ، وتنوعاً في التفكير ؟ ولكنى لا أريد أن أستزيد من معرفتها ، فهى أسمى من أن تتصل بملك ضال مثلى ، ولو كانت أقل كالأماهى عليه لأعجبتنى أكثر “ . وكانت هذه أيضاً هى عقيدة الكثيرين فى أنابيل .

وعند ما اشتد طيش كارولين فى عام ١٨١٣ وتضاعف استهتارها ، فكر بايرون فى أن يتزوج ليضع حداً لعلاقته بها .

وكاشف ليدى ملبورن رغبته في الزواج من أنابيللا ، وكلفها
الاتصال بها وتبليغها الرسالة . ولم يكن طبعاً للحب نصيب في هذه
الفكرة ، فترددت الصديقة بعض التردد لاختلاف الاثنين
في التربية ، والمبادئ ، والأخلاق ، مما لا يبشر بسعادة مقبلة ؛
ولكنها اقتنعت بصدق رغبة بايرون ، فأرسلت إلى ابنة أخيها
تكاشفها بالأمر . ولكن أنابيللا حكمت عقلها كعادتها ، ورفضت
في أدب بحجة كاذبة ، وهي أنها متعلقة بشخص آخر . ولما علم
بايرون برفضها ، ازداد اهتمامه بها ، لأنه لم يعهد رفضاً من امرأة
قبلها . أما هي فقد داخلها سرور عظيم أن استطاعت جذب
الشاعر الجليل الذي جئت به نساء انجلترا . وعلى الرغم من رفضها
الزواج منه ، ظلت تفكر فيه ، وتتبع حركاته وسكناته ،
وتصغى إلى ما يتناقله الناس عنه من أقاويل ، وبذلك فضحت
— دون أن تشعر — حبها الخفي له .

وعند ما تهامس الناس بأمر علاقته بأوجستا ، وصلت
الهمسات إليها في الريف ، فاشتد بها الحزن . وأصبح بايرون
بعد ذلك محور تفكيرها الدائم ، وساءلت نفسها : أحقاً هو شرير
كما يقولون ؟ ولكن قلبها أجابها بغير ذلك . وبعد طول التفكير

ظنت أنابيل أنها قد اهدت إلى موطن الداء فيه : فأخطاؤه جميعاً نتيجة سوء تربيته الأولى ، وما شروره إلا قشرة زائفة تخفي تحتها صفات نبيلة طيبة ، لم تجد مجالاً للظهور . واقتنعت أخيراً أنه ملك غوى ، وعليها أن تنقذه من غوايته فترد إليه إيمانه بتقواها ، وتشفي جروح قلبه بعطفها ، وتزيل عنه بإخلاصها تلك القشرة التي كوّنتها الأيام الخائنة . ولقد صدقت أنابيل في شرحها للداء ، ولكنها لم تتبين أبداً ، أن الإصابة قد استفحلت وبلغت حداً لا علاج له . وبدافع أملها الخادع بدأت ترأسله ، فارتفعت الكلفة بينهما ، وعند ما أطبقت الفضيحة عليه ، وجد الطريق ممهداً ، فتقدم ثانية إليها ، وفي هذه المرة قبلت الزواج منه دون تردد .

وأقبل بايرون على الزواج ، بعقيدة تختلف عن عقيدتها كل الاختلاف : لم يكن يحمل لها حباً ، وظن أنها أيضاً لا تحبه ، ولذلك بنى أملاً واسعاً في حياة طيبة مقبلة . فقلبه في شغل بأوجستا عن أية امرأة أخرى ، ومن الحكمة إذن ألا يدخل الحب في زواجه بعد ذلك ، ويكفيه أن تصبح امرأته المستقبلية قائدة له في الحياة ومرشدة . والمرء لا يستطيع القيادة أو الإرشاد

إذا كبله الحب بقيوده القاسية . وأخطأ في التقدير كعادته ،
فلقد كانت أنايلا تحبه من أعماق قلبها ، بدليل اهتمامها العظيم
بقتيع أخباره ، وندمها على رفضها الأول له ، وقبولها ثانية الزواج
فرحة سعيدة .

وأخطأت هي أيضاً : فظننت أنه يحبها ويعبدها ، وعاهدت
نفسها على أن تكون ملكة المنفذ ، وأن تخلصه من ضلالتة بما
حبها عليه من قوة وسلطان ! وبذلك تؤدي خدمة للجمتمع ،
وتستحق عند الله الأجر والثواب . وفي اليوم الثاني من شهر
يناير عام ١٨١٥ ربط الاثنان حياتهما بعد أن وقفا أمام المذبح
على أرض من الخيال والأوهام .



لم يعد الزواج على بايرون بالفائدة المادية التي كان ينتظرها :
فقد ربط سير رالف لابنته معاشاً سنوياً ، قدره ألف جنيه ،
تتسلم منه ثلثمائة لئفقاتها الخاصة ، وينال زوجها الباقي . وقرر
أن يسير على هذا النظام حتى تثول إليها الممتلكات بعد وفاته ،
ووفاة زوجته . وخرج بايرون من الصفقة صفر اليدين ، فالمبلغ

الجديد لا يكفي نفقات حياته الزوجية ، وستبقى ديونه على حالها
إن لم تتضخم وتتضاعف .

ولم يعد الزواج أيضاً بالفائدة المعنوية المرجوة : إذ تبين أن
عروسه تحبه من أعماق قلبها ، وقد اختارها على غير هذا الظن !
وسيحول هذا الحب دون أن تكون قائدة ومرشدة ، فالعقل والقلب
لا يسيران أبداً جنباً إلى جنب . وتملكه الغيظ والغضب ،
وتحرك شيطان الشر في قلب أفقده الأيام رفته وحساسيته ،
وانتوى أن يعذب المرأة التي ارتكبت — في نظره — جريمة
فاحشة بجها له . وما كادت العربة تسير بهما إلى رحلة شهر
العسل ، حتى انفجر ضاحكا ، وقال لها في سخيرية لازعة :

— « لقد ذهبت ضحية خيالك وأوهامك ! أو تظنين
— وأنت على هذا الذكاء — أن في استطاعة امرأة أن تصلحني ؟
يكفي أن تكوني زوجتي لأكرهك ، ولو كنت زوجة رجل
آخر لأعجبتي أكثر ! »

ثم تمهل قليلا وقال :

— ستعرفين بعد أنك اقترنت بشيطان مرید !

ونزلت أقواله على قلبها الحار نزول الصقيع وتحطمت كبرياؤها .
وفي ثورة غضبها استدعت خادمتها ، وأمرتها أن تجلس معها في
العربة ، لتضع حداً لأقواله المهينة .

ومرت أيام شهر العسل في مرارة قاسية ، وخيم على العروسين
حزن واكتئاب ، ورأت من أخلاق زوجها عجباً : تارة يثور
فيصب على رأسها جام غضبه ، وتارة أخرى يهدأ فيعطف عليها
ويطلب منها الصفح والغفران . وما تكاد تسعد بمغطفه لحظة حتى
يتقلب وحشاً كاسراً . وفي خلال غضباته يحدثها بأمور جديدة
عليها ، فيرتعد قلبها المؤمن الطاهر من مجرد سماعها ، ويرى بعينه
الثاقبة مظاهر إيمانها ، فيثور ويحاول أن يحطمه . وفي المساء يجلس
معهما ساعات طوالاً ، يقنعها بوجهة نظره في الأديان ، ويردد على
أسماعها ما تلقاه في اسكتلندا على يد پاترسون وماى جراى .

ولم تكرهه أنابيلاً أو تحقد عليه ، فقد كان حبه له أقوى من
أن تزعزع مثل هذه الأشياء ، وظل الملك المنقذ ينتظر الفرصة
المناسبة للقيام بواجبه ! ولكن شكاً خطيراً بدأ يعذب قلب
هذا الملك .

بدأت شكوك أنابيلا بعد يومين من زواجها، فقد تسلم بايرون رسالة من أخته أوجستا، تلقبه فيها بأعز الأحاب، فقرأه أمامها بصوت مرتفع، وسألها رأيها في هذه الكلمات ! وبعد ذلك بأيام وجدها تقرأ كتابا، يدور موضوعه حول العلاقة المحرمة، فغضب إلى حد أخافها غضبه وأزعجها. ومع ذلك كان أبداً يدور حول الموضوع ويدافع عنه بحرارة شديدة.

وفي الليل ترى ليدي بايرون أحوالاً عجيبية، فلهو اجس تطارد نومه، والأرق يلازمه؛ فينهض من فراشه، ليتفقد غدارته وخنجره ثم يجول في البيت وحيداً، ليعود منهاكا إليها عند مطلع الفجر. وجمعت شجاعتهما يوماً فسألته عما يقلقه، فاعترف أنه يكتن سرّاً دفيناً خطيراً، وسيحدثها به عند ما تضع طفلها الأول. وطبيعي أن تشك أنابيلا، ولكن حبها ينكر عليها شكوكها، فتبعدها عن رأسها في الحال.

وبعد ثلاثة أشهر طويلة قرر الزوجان أن يعودا إلى لندن، وأبدى بايرون رغبته في المرور وحده على «سيكس مايل بوتوم» لزيارة أخته أوجستا، ولكن ليدي بايرون صممت على أن ترافقه وبعد إلحاح قبل أن يأخذها معه كارها.

واستقبلتهما أوجستا في شيء من البرود والجمود ، وشغل
الأخوان بعضهما ببعض عن أنابيلا ، فقضت ليلتها وحيدة شاردة
الفكر .

وتكررت القصة كل ليلة ، فحزنت حزناً بليغاً ، وذبل وجهها
وفقدت شهوة الطعام ، وجعلت تعد الأيام ، حتى تعود إلى لندن
فيزول عن قلبها ذلك الكابوس .

وتملك ليدي بايرون الرعب الشديد ، فأنكبت على الكتاب
المقدس تقرأه كل ليلة ، لتعيد آياته هدوء قلبها المفقود .

ومع كل ذلك أحبت الزوجة الطيبة أخت زوجها ، حين
غيرت هذه سلوكها بعد اليوم الأول ، وزايلها البرود والجمود ،
وعطفت على أنابيلا ، وحمتها من ثورات بايرون وغضباته . وفي
كل صباح تجلس المرأتان تتحدثان عن حبيبهما المشترك ، فتمد
الأخت الزوجة بالنصح والإرشاد في أسلوب طعامه وطريقة معاملته ،
وعندما انتهت الزيارة كانت ليدي بايرون نهياً لعاطفتين
مقضاربتين : حبها لأوجستا ، ورعها من السر الدفين . وضعف
جسدها لما تعانیه ، وازداد ضعفها بأعراض الحمل التي ظهرت عليها .

نزل بايرون وزوجته لندن ، وسكنا في بيت أنيق في شارع
 بيكاديللي يبلغ إيجاره سبعمائة جنيه سنوياً ، وهو كل ما أصابه
 من صفقة الزواج . وتطلبت الحياة الجديدة نفقات كثيرة ،
 فازدادت ديونه ، ولم يعد إيراد ممتلكاته يكفي أرباح هذه الديون .
 واشترى بايرون نصيباً في مسرح « دروري لين » وبذلك دخل
 عضواً في مجلس إدارته . ومهد له المركز الجديد فرصة الاتصال
 بالمشاتل ، فانغمس في الملاذ مرة أخرى ليهرب من شبح الخطيئة
 الذي يطارده دائماً . وعند ما يعود من سهراته كل ليلة ويرى
 وجه أنابيللا يمتلئ بالتقوى ، والصبر ، والحزن يتحرك ضميره من
 مرقده ، فيثور على نفسه ، ويصب جام غضبه على رأس من
 تحرك ذلك الضمير في هدوء وسكون .

وعجبت ليدى بايرون لحالته الشاذة ، ولم تستطع عينها الصائبة
 أن تفهم حالة الصراع النفسى الذى يعاينه ، وظنت أنه يوشك
 أن يجن ، فأرسلت تدعو أوجستا لزيارتها ، والبقاء معهما بعض
 الوقت ، عسى أن يخفف وجودها حدة أخلاقه ؛ وعارض هو في
 الدعوة ، وحاول جهده أن يثنىها عن عزمها فلم يفلح .

وعادت الحياة إلى ما كانت عليه في «سيكس مايل بوتوم»
ففي كل ليلة تصعد أنايلا وحدها إلى حجرتها ، لتنصت إلى
ضحكات الاثنين وحديثهما . وازدادت كراهيتها لأوجستا ، وندمت
على دعوتها وقررت أن تتخلص منها . وأخيراً ذهبت الضيفة
البغيضة ، وعادت إلى بيتها ، فهدأ قلب ليدى بايرون بعض
الهدوء ، وظنت أن وقت الأحزان قد ذهب ، وعهد الاطمئنان
قد حان .

ولكن الأقدار كانت تقف أبداً لبايرون بالمرصاد ففي ذلك
العهد وصلت أخبار تحمل هزيمة نابليون ، وكان الشاعر من أشد
المعجبين به ؛ فحزن ، وتحطمت آماله في سياسة أوربة ، وفقد
الأمل في إمكان وجود جمهورية عادلة تحرر تلك البلاد من قسوة
ميترنيخ . وبينما كانت إنجلترا ترقص طرباً لنصرها ، كان بايرون
ينظم القصائد في تمجيد البطل المهزوم ووداعه . وعافت نفسه
البلاد التي يعيش فيها ، وعادته الرغبة في هجرها إلى أقطار الشرق
البعيدة . ولعن الزواج الذي يقيدته ، ويحرمه حرية السفر والترحال .
وجدت ارتباكاً مالية عدة ، وألح الدائنون في طلب

أموالهم، ثم حجزوا على أكثر ممتلكاته . وفكر بايرون في أزمته الشديدة ، فلم يجد إلا أن يحمل أنابيلا أسباب هذه المصائب والنكبات ، وندم على الزواج ، فازدادت قسوته وشراسته . وفي خلال ثوراته يأتي العجيب من الأعمال ، وحدث ذات مرة أن أمسك بساعته الذهبية ، وحطمها على الأرض في جنون .

وأشرفت ليدي بايرون على الوضع وأحست رغبة شديدة في أن يلازمها أحد خلال هذه الفترة . وضاق صدرها بالأحزان ، فتمنت لو استطاعت أن تكشف صديقة أو قريبة بما يؤلمها ؛ فكرت في أمها ، ثم عادت وخشيت هذه الأم ، فلو عرفت ليدي ميلبانكي بما تعانيه ابنتها لحتمت عليها الانفصال عن زوجها ، وأنابيلا ماتزال تحب بايرون ، وتأمل أن تنقذه في يوم من الأيام . لم تجد إذن إلا أوجستا فأرسلت تدعوها مرة ثانية ، فلبت الدعوة في الحال . ودهشت لما عرا أخاها من تغير شديد خلال الأشهر الأخيرة ، وبعد محادثات طويلة اقتنعت المرأتان بأنه مجنون .

وفي اليوم العاشر من شهر ديسمبر عام ١٨١٥ وضعت أنابيلا طفلة جميلة أطلق الأب عليها اسم « أوجستا آدا » . وبعد الوضع

بأسبوعين بلغت الأزمة المالية حداً خطيراً ، فبسط الدائنون على البيت ، وحجزوا على رياشه ، وحددوا للبيع تاريخاً قريباً .
وتحت وطأة هذه المصيبة الجديدة أرسل بايرون إلى زوجته في حجرة نومها ورقة يطلب منها العودة إلى والديها . وجرحت كبرياؤها ، فأجابت برقعة أخرى تقول فيها إنها ستطيع أمره ، وترحل عن بيته ومعها طفلتها حين يسمح لها الطبيب بمغادرة الفراش .

واستدعت الدكتور بيلي لتستطلع رأيه في حالة زوجها العقلية وصارحته بمخاوفها ، ووصفت له جنون تصرفاته خلال الأشهر الأخيرة . واشتركت أوجستا في ذلك المؤتمر الصغير ، فطلب الطبيب أن تمهله بعض الوقت ليراقب بايرون عن قرب ، ويبدى رأياً في جنونه أو عقله . وبعد أسبوع أخذت أنابيلا طفلتها الصغيرة آدا وسافرت إلى قصر والدها في الريف تنتظر رد الطبيب .

دخلت أنابيل على والديها ، فلم يعرفاها لشدة ما طرأ عليها من تغير ؛ فوجهها ممتقع ، وعيناها ذابلتان ، وجسدها نحيل ، ومظاهر الشقاء والألم تنبعث من كل كلمة أو حركة منها . ولم يكن من المعقول أن وضع الطفلة قد سبب كل هذا ، ولذلك جلس الوالدان يستوضحان الأمر منها ، ويستجوبانها بأسئلة دقيقة حكيمة . وحاولت أنابيل أن تخفي الحقيقة عنهما ، ولكن ضعفها وحزنها تغلبا عليها ، فقصت على أسماعهما تفاصيل تصرفاته ، وأخفت شكوكها فيما يتصل بأوجستا . وثار غضب سير رالف وزوجته ، ووجدوا في معاملة بايرون لابنتهما مهانة لهما ، ونبلا من كرامة الأسرة ، ولكنها أوضحت لهما فكرة جنونه ، فزايتهما الغضب ، وغفراله ، واقترحا دعوته إلى الريف ليعالج تحت إشرافهم جميعاً .

وبعد أسابيع قليلة ، وصلت تقارير الأطباء تقول إن بايرون سليم العقل والذهن ، وكل ما يعانيه هو مزاج حاد موروث ، وصفات شريرة متأصلة فيه . وكانت هذه الأخبار صدمة شديدة

لأنابيل : فلو كان مجنوناً لفهمت معنى تصرفاته ومعاملته ،
ولعادت إلى بيته لتعنى به وتخدمه . أما أن يكون عاقلاً ، فلا
مجال لتسامح أو غفران ؛ وفي عاصفة شديدة من البكاء ، قصت
على والديها ما سبق أن أخفته ، وصارحتهما بشكوكها في علاقته
بأخته ، وشواهدهما على هذه الشكوك . وأمام الحقيقة الخطيرة
قرر الوالدان فصل ابنتهما عن زوجها بالقانون ، وأرسلوا خطاباً
لبايرون يطلبان منه الموافقة ، وندب محام للتفاهم معه .

وفوجئ بايرون بهذا الخطاب ، ودهش أن تقرر زوجه فجأة
مثل هذا القرار ، بعد أن احتملته طويلاً ، وأظهرت له من
مظاهر الحب شيئاً كثيراً ، فأى داع جديد يدفعها الآن إلى
هجره ، واقتطاعه من حياتها هكذا ؟ ! أهى أخلاقه ؟ ولكنها تعرف
أن أخلاقه متأصلة فيه ولا حكم له عليها ، وقد غفرت كثيراً من
قبل ! أم هى أوجستا ؟ وارتد عقل بايرون إلى رأسه ، فرأى
الحقيقة الواضحة أمامه ، وعرف أن امرأته خير زوجة فى الحياة ،
وسيحطمه هجرها إلى الأبد .

وفى الواقع كان بايرون يحب أنابيل ، ويقدر صفاتها النبيلة
وأخلاقها النادرة ؛ ولولا هذا الحب لما تيقظ ضميره وعذبه ،

فاندفع إلى الملاذ في جنون هر با منه . أما قسوته عليها ووحشيته في معاملتها فنتيجة صراعه مع نفسه التي امتلأت بالخزي والعار والندم ، أمام تسامح زوجته ، وإيمانها القوي ، وتقواها الخالصة . ولو كان شخص آخر غيره لما أخذ الصراع في نفسه هذا الشكل الخفيف ، ولكن بايرون اختلف عن غيره من الناس ، وتربى بين الآلام والأحزان ، وصدمته الدنيا بويلاتها ، وأورثه أجداده دماء لا تعرف التعقل أو الهدوء ، وأصابته الطبيعة بإحساس مرهف لم يحتمل قسوة الحياة ، نغمت صوته ومات . وكل هذه الظروف تبرر شدوذه ، وقسوته ، وتصرفاته العجيبة ، وتملأ النفس بالحزن عليه والرتاء له .

ولم يجد بايرون إلا أن يلجأ إلى أوجستا ، فكتبت لآنايلا تبلغها رسالته ، وتطلب منها التعقل ، وتؤكد لها حبه ، وتذكرها بالأيام السعيدة القليلة التي قضتها معه . ولم يجد الخطاب أذناً صاغية ، فاقترح بايرون نفسه الميدان ، وحاول جهده أن يثنيها عن قرارها ؛ تارة بالاستعطاف ، وتارة بالتهديد ، ولكن أسرة ميلبانكى ، وعلى رأسها آنايلا ، وقفوا ثابتين ، ولم ترزحهم هذه المحاولات عن قرار الانفصال .

وتطارت الإشاعات ، وتهامس الناس بحقيقة دوافع هذا الانفصال ، وتردد اسم أوجستا على كل لسان ، وأنذر الجو بفضيحة تقترب ، ولكن أسرة ميلبانكى أظهرت نبلا عظيما : فلم يتحدث أفرادها بشيء ، وطلبوا الانفصال بدعوى القسوة في المعاملة فقط . وظن بايرون أنه في مأمن ، فرفض الموافقة على الانفصال ، فكتبت أنابيلا تقريراً سرى عن الأسباب الحقيقية التي تدفعها إلى هذه الخطوة الحكيمة ، وأعطته محاميتها ، ليعرضه على الزوج ، وهددت بتقديمه إلى المحكمة إذا صمم على الرفض . وكانت نتيجة التقرير أن تخاذل بايرون ، ووافق في الحال . ولم يعرف الناس ما في هذه الوثيقة من أمور أو اتهامات ، وبقمت محتوياتها سراً غامضاً حتى أعلنه حفيد بايرون بعد وفاة الشاعر بأربعين عاماً أو أكثر .

وعلى الرغم من احتياط آل ميلبانكى وتكتمهم الشديد ، تطارت الأقوال ، وضج المجتمع غاضباً ثائراً ، وجرفت الفضيحة ما اعترض طريقها ، وساهمت كارولين لامب في إشعال النيران بتريد تصريحاته السابقة عن العلائق المحرمة ، وإعلان الخطابات التي أشار فيها إلى الموضوع . وبدأ نجمه في الأفول سريعاً ،

وهرب الناس منه ، وأغلقت أبواب الدور في وجهه ، وامتنعت الطبقة الراقية عن دعوته إلى حفلاتها ، أو مصاحقته في الطرقات . وأرادت ليدى جيرسى أن تنقذه ، وتقف أمام تيار الرأى العام ، فأقامت حفلة كبيرة ودعت بايرون وأوجستا إليها ، فما كاد الأخوان يدخلان البهو ، حتى انصرف جميع المدعوين ، فدخل حجرة أخرى ، فزايها الناس في الحال . واضطر معبود الجماهير السابق أن ينتحى ركنًا بعيداً يرقب منه ثورة هذه الجماهير عليه في غضب ومهانة ؛ ووقف في هذا المكان يعقد ذراعيه على صدره كتمثال جميل للرعب والخطيئة . وخرج من هذه الحنة بقسوة جديدة ، وجهود مضاعف ، واحمى كل أثر في نفسه لقبيل أوطيبة أو إحساس .

عند ما عاد بايرون إلى بيته ، وتهاالك على مقعده ، واستعرض حياته إلى هذه اللحظة ، ورأى كيف ارتفع منذ سنوات فجأة إلى سماء الشهرة والعظمة والعبادة ، وكيف سقط في لحظة من عليائه إلى هاوية العار والمهانة ؛ قرر أن يرد الإساءة إلى المجتمع مضاعفة ، فما دام الناس قد حكموا عليه بالشر ، فلي لعب دور الشيطان كما يريدون ، ويذيقهم كأس المرارة كما يتذوقه الآن .

وثار غضبه البايرونى ، فأخرجه عن حدود الحكمة والعقل ،
وأكب على أوراقه يكتب مقالا فى تمجيد نابليون ، والتنديد
بسياسة البلاد ، ونظم القصائد فى مديح عدو انجلترا . ونشرت
إحدى الجرائد مقاله ، بحجة رغبتها فى إطلاع القراء على رأى
سياسى لنبييل انجليزى ، وبظهور المقال أصبح بايرون خائفاً
لوطنه عدواً لبلاده !

ولكن المجتمع لا يهزم بسهولة كما ظن بايرون ، فقد تضاعف
غضب الناس ، وتجمعوا فى طريقه إلى مجلس اللوردات ،
وأَمْطَرُوهُ وابلا من الشتائم والسباب . وفى المجلس رفض الأعضاء
مصافحته ، أو تبادل الحديث معه ، وعند الباب انتظرت النساء
ليبصقن فى وجهه . وانتهز الدائنون هذه الفرصة ، فتمعجوا الحجز
وباعوا أثاث بيته فى مزاد علنى ، وتلفت بايرون حوله فوجد
نفسه وحيداً فى بيت خال من الأصدقاء والرياش . وجد نفسه
وحيداً فى بلد يموج بالملايين ، فانتوى الرحيل ، وعقد العزم على
هجر المجتمع الذى نبذه نبذاً لم يذكر التاريخ له مثيلاً من قبل .

أعد بايرون معدات الرحيل ، وقبل سفره بأسبوع ، اندفع

إلى مغامرة غرامية جديدة بقيت آثارها بعد ذلك سنوات : ففي العهد الأخير دأبت سيدة مجهولة على مراسلته ، وفي بادئ الأمر لم تكتب اسمها في رسائلها ، وبالتدريج كشفت له عن شخصيتها ، وعن حبها العميق الذي تكنه له . وطارده هذه السيدة ، وهي كليز كليز مونت ، في كل مكان ، واقتحمت عليه بيته مرات عدة ، فطردها الخدم شر طردة . وأخيراً أرسلت إليه تقترح أن يسافرا إلى الريف ، ويقضى معها ليلة قبل رحيله . وكان بايرون إذ ذاك وحيداً تعساً شقيماً ، ولذلك خضع لاقتراحها ، وسافر مع كليز كليز مونت إلى الريف ، وقضى الليلة التي تطلبها . وعافتها نفسه بعد ذلك ، فقطع صلته بها ، وساعده على تصرفه أنه لم يكن يحبها ، أو يعجب بها ، وكل ما في الأمر أنه استعجاب ، أمام تهالكها عليه رغبة في أن يجد بعض العزاء والسلوى .

وفي اليوم السابق لسفره جلس بايرون وحيداً في بيته ، فتحركت الأفكار في رأسه والآلام في قلبه : تذكر الماضي بحلاوته : والحاضر بمرارته . تذكر أنابيللا ، وقد حرم عطفها إلى الأبد ، وابنته آدا التي لم يرها إلا أياماً قليلة . وانهار الجبار تحت

وطأة أحزانه ، فاستسلم للبكاء ، وتناول ورقا وقلما ، وراح يودع زوجته بقصيدة رائعة مطلعها :

« وداعاً . . . إلى الأبد . . . وداعاً . . . »

« هذا قلبي طوع أمرك ، وإن رفضت الصبح عني ، »

« فقد كشفت صدري لعينك ، فرأيت ما يحويه ، »

« وعليه نام رأسك ، وأقفل النعاس عينك ، »

« فبربك كيف أمكن هكذا أن تطعنيه ؟! »

وعند ما أخذ صديقه مورأصول هذه القطعة ، وجد أن الدموع قد طمست معظم الكلمات .

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل عام ١٨١٦ خرج طريد المجتمع من بيته عند بزوغ الفجر ، ليهجر وطنه إلى الأبد . وفي هذا الوقت المبكر تجمع الناس أمام منزله ليروا معبودهم السابق ، وهو يغادر البلاد ذليلاً محطماً ، وبين بسماتهم الساخرة ، وشتائمهم القاسية ، ابتعدت العربية بالشاعر الجميل في رفقة طبيبه « بوليدوري » وخادمه الأمين « فلتشر » . واضطر بايزون أن يسلك في سفره طريقاً طويلاً ، فقد رفض الفرنسيون أن يسمحوا له بالمرور في أراضيهم لآرائه النابليونية ، فاتجه أولاً

إلى دوثر ، ومنها إلى سويسرا عن طريق بلجيكا .
 وكان خبر رحيله قد سبقه إلى دوثر ، فاحتشدت الطرقات
 بالجاهير ، وتختفت السيدات في زى الخادومات ، ووقفن على باب
 الفندق ينتظرن انصرافه ، وبين هذه المظاهرات العجيبة سار
 بايرون إلى السفينة ، رافع الرأس ، شامخ الأنف ، ولكن
 عند ما تحركت به ، وبدأت أرض الوطن تبتعد ، اغرورقت
 عيناه بالدموع .

٨

ما كادت انجلترا تختفي عن أنظار بايرون ، حتى تغلب على
 ضعفه ، وكبت دموعه ، وعادت الابتسامة إلى شفثيه ، ولكنها
 ابتسامة حزينة تخفي ما يمتلئ في صدره من آلام وأحزان .
 وحالت الكبرياء دون أن يستسلم للضعف أمام من معه ، فضاقت
 قلبه بما فيه ، ولم يجد وسيلة للخلاص إلا الشعر . واختمرت في
 رأسه فكرة الجزء الثاني من « الطفل هارولد » ، فأكب على
 أوراقه يصف ذلك العهد الجديد ، ويشرح حاله النفسية في

أبيات رائعة حزينة ، وبدأ القصيدة بمناجاة ابنته آدا ،
واختتمها بوداعها .

وفي مدينة بروكسل زار ميدان القتال حيث انهزم بطله
نابليون في معركة ووترلو . وقف وحيدا في الميدان ينظر ويتأمل ،
وينعى بطلا ارتفع ثم سقط مثله ، وإن اختلفت طريقة السقوط .
وجال الشاعر شهراً في بلاد أوربة ، ثم اتجه إلى سويسرا ،
ووصل إلى جنيف في اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو .
وما كاد بايرون يدخل الفندق حتى وجد أن كلير كليرمونت
قد سبقته إليه في رفقة الشاعر الانجليزي « شيلي » وزوجته .

وعقدت الصداقة أواصرها بين الرجلين ، فكلاهما شاعر
عظيم قفز ببلاده إلى عهد أدبي جديد ، وكلاهما رفع راية العصيان
على تقاليد مجتمعه ، فكان نصيبه النفي والتشريد . وسارت الحياة
هادئة في جنيف : ففي الصباح يسبحان معا في البحيرة ، أو
يجولان في الجبال . وفي المساء يتناقشان في السياسة أو يتحدثان
في الشعر والأدب .

وكان شيلي يشبه بايرون في ميوله السياسية : فهو يحب
نابليون ، ويقدر ذكره ، ويعتقد أن معركة ووترلو قد ذهبت

بكل أمل في تحرير أوربة من ربة الاستعباد ؛ ولكنه كان يختلف عنه في الأخلاق والإيمان : فهو هادئ الطبع ، حلو الأخلاق ، رقيق المعاملة ، يدخل السلام في قلوب سامعيه بصوته الخافت ، وحكمه البليغة ، وإيمانه القوى الراسخ .

ووجد بايرون في هذا الصديق الذي يشبهه ، ويختلف عنه سحرًا عميقًا ، فتأثر به إلى حد بعيد ، وبفضله زال تشككه مؤقتًا ، واختفت الأشباح التي تطارده ، وأحب الطبيعة الساكنة الهادئة ، فوصفها في شعره وصفا رقيقا وديعا ، يختلف كل الاختلاف عن أسلوبه الثائر السابق .

وفي ذات يوم زار الشاعران قصر « شيمون » الأثري ، فأوحت الزيارة لبايرون بقصيدة جديدة هي « سجين شيمون » . وفي هذه القصيدة يتحدث السجين عن نفسه وإخوته الذين سجنوا معه في القصر الموحش الرهيب ، ويموت الإخوة واحداً إثر واحد ، ولا يبقى إلا هو . وبعد جهد كبير يحطم الأغلال عن معصميه ، ويصعد إلى نافذة سجنه ليلقي نظرة إلى العالم الخارجي ، فيرى أمامه جبال سويسرا الشائخة :

« نظرت إليها فوجدتها كما كانت ، ولم تغيرها الأيام كما غيرتني : »

« فالثلوج الأزلية تحوط قممها ، ومن تحتها تهتز البحيرة في رقة ، »
 « ويجرى الزون في قوة وفتوة . وسمعت السيول وهي تقفز غاضبة ، »
 « لترتطم بالصخور والشجيرات . ومن بعيد وقفت المدينة »
 « بأسوارها البيضاء وقلاعها الناصعة . »
 « رأيت أيضا جزيرة صـغيرة خضراء »
 « لا تزيد مساحتها عن أرض سجنى ، »
 « وخيـل إلى أنها تبسم لى مرحبة ، »
 « وأنا أطل عليها من نافذة قبـوى . »
 « وفي وسط الجزيرة قامت ثلاث شجرات طويلة ، »
 « تنمو عليها زهور جميلة ذات عبير قوى ، »
 « وتجـرى تحتها مياه جـدول رـقراق ، »
 « وبين آونة وأخرى يداعب النسيم أغصانها ، »
 « فتمايل فى تيمـه ودلال . »

وهذه القصيدة الطبيعية الهادئة تدل على تأثير صحبة شبلى فى شاعرنا الشاعر .

وتجددت علاقته بكليركليمونت التى لم يكن قد رآها إلا مرة واحدة قبل سفره من إنجلترا ، وكأن الأحران لم ترقق

قلبه نحو النساء ، فسامها عذاب الاحتقار والإهانة ، ولم ينس أبداً أنها اقتحمت عزلته ، وفرضت نفسها عليه ، وارتمت بين ذراعيه دون حياء أو خجل ، وعند ما علم أنها تنتظر مولوداً منه زاد احتقاره لها ، ولكنه انتوى أن يربي الطفل ليؤنس وحشته ، ويبدد وحدته ، ثم يتخذها أداة لتعذيب المرأة المستهتره .

وبعد ثلاثة أشهر سافر آل شيلي ، فتألم بايرون لفراقهم ، ولكنه تنفس الصعداء عند ما رحلت كليز في صحبتهم ؛ وكتب إلى أوجستا خطاباً يقول فيه :

« لا تؤنبيني ، أيتها العزيزة ، فماذا كان باستطاعتي أن أفعل ؟ امرأة طائشة تصر على ملاحقتي ، بالرغم من قسوتي عليها !! لقد بذلت جهداً عظيماً ، حتى أقنعتها بالبعد عني ، والعودة إلى وطنها ، وثق أنه لم يكن في مقدوري أن أتخلص منها أو أتجنبها إذ لا أحبها ، وليس بقلبي متسع لحب جديد ، ولكنني لم أستطع أن ألعب دور الفيلسوف مع امرأة قطعت ثمانمائة ميل لتجردني من فلسفتي . »

عند ما سافر شيلي ، أحس بايرون للمرة الأولى بقسوة الوحدة

ووطاة النفي ، وعادت أشباح الماضي تطارده : تذكر أنا بيلا التي
حطمته بقسوتها ، وآدا الصغيرة وقد حرمت رعايته ، ثم أوجستا
وهي في معزل عن الناس ، تبكي عارها وخطيئتها . واشتد به
الحنين إليها ، فنظم لها قصيدة حارة يقول في مطلعها :

« وإن ذهبت أيام المجد ، وأفل نجم الحظ ، »

« فقد أبت عينك أن ترى زلات أخ عزيز . »

« ومع أن الأحزان شملتك ، والآلام غمرتك ، »

« فقد أبى قلبك إلا أن يشركني في حبه العظيم »

وحركت ذكراها ضميره من مرقدته ، وبدأ الصراع مرة
أخرى ، وسيطرت العلاقة المحرمة على ذهنه وأفكاره ، فعمد
إلى الشعر ، ليخفف أحزانه ، ونظم قصة جديدة عنوانها
« مانفريد » . وفي هذه القصة وصف شامل لحياة المؤلف وصراعه
وخطيئته : فمانفريد أمير من أمراء الألب نال ثقافة عظيمة ،
ولكنه اتصل « باستارقي » ، فظلت الخطيئة الكبرى تعذبه ،
فيتعلم فنون السحر ، ويستحضر الأرواح ، لعلها تمنحه التوبة
والغفران . وعند ما يصف « أستارقي » للساحر نجد أن المؤلف
يصف أخته تماما :

مانفريد : « كانت تشبهني في عينيها ، وشعرها ، »
 « وتقاسيمها ، ونغمات صوتها ، »
 « ولكن في دعة وهدوء وجمال ؛ »
 « لها وحدة أفكارى وآرائى »
 « ورغبتى فى تذوق المعرفة الخفية ، »
 « ولكنها تفوقنى رقة : تعرف الشفقة ، »
 « والابتسام ، والدموع التى لم أسكبها إلا من أجلها . »
 « كان لها أخطائى ، أما فضائلها فلم أشاركها فيها ... »
 « لقد أحببتها وحطمتها !! »
 الساحر : « أحطمتها بيدك ؟ »

مانفريد : « لا ... بل قلبى الذى حطم قلبها . »
 وقبل أن ينتهى من هذه القصة حل الشتاء ، وهبط السائحون
 الإنجليز على سويسرا ، واتجهت إليه العيون فى جمود وسُخرية
 واحتقار ، فعمد العزم على الرحيل ، وسافر فى شهر نوفمبر إلى
 البندقية « مدينة القلب السحرية » كما يقول .

وصل الشاعر إلى البندقية فى نوفمبر عام ١٨١٦ ، فاستأجر

بيتاً جميلاً ، وحط الرحال فيه . وهدأت نفسه بعض الشيء ،
وامتلاً قلبه بالسرور لوجوده في مدينة أحلامه ؛ وظن أن
الأفكار التي طارده في سويسرا ستنتهي ببدء هذا العهد الجديد .
ومضت الأيام الأولى كما يشتهي ، ثم عاد الحال إلى ما كان عليه
وعرف أنه لا سبيل للهرب من نفسه ؛ فهي تتبعه أينما ذهب . ومن
أجل أن ينسى ، أقبل على كتابة الشعر ، فأتم قصيدة « مانريد » .
وعند ما فرغ منها اشتد حنينه إلى بلاده ، وازدادت رغبته
في تذوق الجد والسعادة التي عرفها هناك ، فكتب الخطابات إلى
أصدقائه في إنجلترا ، ولكن البعد كان قد أنساهم معبودهم القديم ،
فأبطأوا في الرد . وثار غضبه على قلبه الذي ما زال يتعلق ببلاد
نبذته ، وبأصدقاء نسوه ، فأرسل إلى ناشره « مري » خطاباً
يقول فيه :

« — منذ شهر مايو لم أتسلم رسالة من إنجلترا ، على الرغم
من أنني كتبت كثيراً في قلق ولهفة ، وهذا يكشف لي عن
حقيقة من يسمون أنفسهم أصدقائي . وأحمد الله ، أنني كلما غبت
أكثر قلّ السبب الذي يدعوني إلى الأسف على الوطن ،
أو الحزن على فراق من يعيشون فيه . قل لهو بهاموس : إنني لن

اغفر له أو لآى شخص آخر ، إهماله وقسوته ، بالصمت فى وقت
أتمنى فيه أن أسمع من أصدقائى . »

وظل الأصدقاء على صمتهم ، فتضاعفت ثورته ، وأرسل
ثانية إلى مرى يقول :

« — أرجو ألا يفكروا فى تحنيطى بعد وفاتى ودفنى فى بلادكم ؛
فلن تجدد عظامى الراحة فى قبر انجلىزى ، ولا أريد أن يختلط
ترابى بأرض هذا البلد . ولو خيل إلى أنه قد يبلغ الانحطاط
بأصدقائى أن يفعلوا هذا ، لأصابنى الجنون على فراش الموت ،
فلن أقبل حتى أن أطعم ديدانكم بجثتى . »

وهذه الخطابات الغاضبة الشديدة تكشف عما يخفيه صدره
من حنين إلى بلاده ، وتعلق بها . وقرر باريون أن يتغلب على
أفكاره ، وازدادت النيران تأججاً واشتعالاً ، وبدأ صراع قوى
تخفيف بينه وبين قلبه وإحساساته ، وعهد الصراع أخطر عهوده ،
ولذلك انغمس فى الملاذ بجنون لا مثيل له ، وأمعن فى الاستهتار
والجون ، وهجر المجتمعات الراقية ، وجمع حوله حشالة الناس .
وبعد أن كان مطمح الأنظار من أشراف الإنجليز انتمى إلى
فئة تختلف عنهم تماماً ، وخص بالحب امرأتين على قسط عظيم

من الجهل والانهطاط الخلقى ، وسره أن يرى حرباً ضروساً تشب
بينهما في سبيل الغلبة والنصر ؛ وامتدت مشاجرات المراتين إلى
الطرقات ، فتفرج أهل البندقية جميعاً بمناسظر مخجلة . وخص
بالصدقة رجالاً فقدوا مظاهر الرجولة وسيرتها منذ أمد بعيد .

وكان لعهد الانهطاط هذا تأثير على شكله أيضاً : فبدأ كأنه
في الأربعين وهو لم يبلغ الثلاثين ، وذبل وجهه ، وتجمع جبينه ،
واكتنز جسمه باللحم والشحم ففقد رشاقته القديمة ، وخشن صوته
وذهبت نغماته الموسيقية الرخيمة ، وتساقط شعره ، ودب المشيب
في عارضيه ، وارتسمت على فمه صورة الاستهتار والشهوة والمجون .
وإن تغير شكل بايرون إلى هذا الحد من القبح لا كبر دليل على
يأسه العظيم ، لأن جماله كان أبداً أهم شيء في حياته .

ولم يكن بايرون راضياً عن حاله أو أسلوب حياته ؛ بل كان
حزيناً متألماً لما وصل إليه ؛ فأغرق أسفه في كثوس الشراب ،
وأقبل على الخمر يغترف منها ، ففاق أكبر سكيرى مجتمعه العرييد ،
وأصاب الخمر كبده فتورمت ، وسببت له آلاماً لا تطاق ،
وجعل يقضى لياليه يتقلب على فراشه متأوهاً ، وحرمه المرض
لذة النوم ، فتوترت أعصابه ، وتضاعفت خشونته وقسوته .

وفي خلال هذا العهد وصل الشاعر شيلي إلى البندقية ،
 ليسلم إليه « أليجرا » الصغيرة ابنته من كلير كليرمونت . وكانت
 الطفلة تبلغ عاماً واحداً من عمرها ، فتقبلها مسروراً ، وعاشت
 في بيته بعض الوقت ، ولكن زوجة القنصل الإنجليزي في
 البندقية تأملت للبيئة الخطيرة التي تحوطها ، فضمتها إلى أحضانها .
 وشاء الله أن ينقذ بايرون من الانحطاط الذي تمرغ فيه ،
 فأصابته حمى الملاريا ، وأشرف على الموت ، ولما شفي قرر أن
 يغير أسلوب حياته ، فطرد خليلتيه ، وقطع صلته بأصدقائه ،
 وطرق بيوت الأشراف مرة أخرى ، واندمج في المجتمع
 الذي يناسب مركزه وثقافته . وقابل يوماً سيدة إيطالية صغيرة ،
 وهي « تريزا » سليلة آل جامبا ، وزوجة كونت جيسمولى
 الهرم ، نخلت لبه ، واستطاعت أن تروضه ، وتعيد السلام
 إلى قلبه وذهنه ؛ فلما سافرت بعد ذلك إلى « رافينا » نفذ
 غبار البندقية عن قدميه ، ولحق بها .

وفي ديسمبر عام ١٨١٩ هجر « مدينة قلبه السحرية » وكتب
 إلى قنصلها الإنجليزي يقول عنها :

— أكره هذا البلد وكل ما ينتمى إليه !

سافر بايرون إلى « رافينا » ، ليلحق بحبيبتة تريزا چيسولي
وبذلك أنقذ نفسه من عهد الانحطاط الذي غرق فيه . وصحب
معه ابنته أليجرا ، لتبدد سأمه ، ولتونس وحشته .

وفي سكون الفندق الأنيق الذي نزل فيه ثاب إليه عقله ،
واختل بنفسه يناقشها الحساب : استعرض الأعوام الأخيرة ،
فوجدتها ذهبت هباءً في أعمال لا يحبها ولا يشتهيها ، ولكنه
يندفع إليها رغبة في النسيان والسلاوى . وتساءل : أيقضى ما تبقى
له من العمر هكذا ؟ حقيقة هو يقرض الشعر ، ويقدم لبلاده
أدباً رائعاً سيبقى لها ذخراً على مر القرون والأجيال ، ولكن
نفسه قلقة حائرة ، لا تجد فيما ينتجه راحة أو سلاماً . وأحس
رغبة شديدة في أن يرضى تلك النفس ، ويشعرها بالحياة ،
وأن يثبت للعالم قدرته على جلائل الأعمال ، ويقدم لوطنه
صفحة جديدة نبيلة ، تمحو ما سبقها من صفحات سوداء . وتذكر
أيام طفولته عندما كان يحلم بشهرة تختلف عن شهرته الآن ،
و بمجد في عالم الأعمال لا في عالم البيان .

واهتدى إلى نفسه الحقّة أخيراً ، فاستكان قلبه ، وهدأت
ثورته ، وظهرت فيه ناحية جديدة طيبة ، وهى ناحية الخيرات
والإحسان ، فوقف مالاً على عجائز الإيطاليين وفقرائهم ، وربط
معاشاً للملاجىء ودور اليتامى ، ومد الأديرة والكنائس بالعطايا
التمينة . وانتشرت أخبار أعماله الخيرية ، فأحبه الناس ، وتجمعوا
حوله ، وتطلعوا إليه فى احترام وتبجيل .

وكانت أوربة فى ذلك العهد تعاني أزمة سياسية خطيرة ،
عقب الحلف المقدس الذى ذهب بآمال عدة فى الحرية ، فثارت
اسبانيا ، وحصلت على دستور طيب لبلادها . وتسربت روح
الثورة إلى إيطاليا ، فقام الناس بحركة مماثلة ، ونادوا بسقوط
السلطة البابوية ، ونجح أهل نابولى فى أن يفتزعوا من ملكهم
دستوراً عادلاً ؛ وتحركت بولونا وراثينا تبغيان الوصول إلى
نفس النتيجة .

ووقف بايرون فرحاً يرقب صراع من حوله فى سبيل الحرية ،
وانتوى أن يخدم قضيتها ، ويساعد إيطاليا على تحرير نفسها ،
وأقسم أن يضعى بكل مرتخص وغالٍ فى سبيل غرضه الأسمى ،
وتطلع إلى عمل كبير يشبع نفسه ، ويرضى مبادئه .

وكانت الظروف مهيأة : فالشعب بأجمعه يتأجج وطنية ، والأطفال يهتفون للحرية في الطرقات ، والأمريكيون يتمرنون علناً على فنون الحرب والقتال ، والأهالي يجمعون الأسلحة والذخيرة ، ويخفونها استعداداً لليوم المنتظر .

وتدخل الشاعر في سياسة البلاد ، فانضوى تحت لواء حزب الكاربوناري ، وخدمه بحماسة وإيمان ، ومدّه بالأموال ، فانتخبوه في رافينا رئيساً للشعبة الأمريكية من «جماعة إخوان حرية إيطاليا» . ووجد أن إقامته في الفندق تعرقل تصرفاته ، وتضعه تحت رقابة الحكومة ؛ ولذلك عزم على الانتقال ، واستأجر طبقة من قصر جييسيولى ، وحط الرحال فيه . وأصبح الجو الجديد الذى يحوطه لا يناسب وجود طفلة صغيرة ، فأرسل أليجرا إلى دير خارج المدينة ، وأمر أن تعمد طبقاً لمبادئ الكاثوليكية ، وتركها هناك في رعاية الراهبات .

وانقلب مسكنه الجديد إلى مخزن كبير للذخيرة ؛ وأرسل إلى لندن يطلب من أصدقائه أن يمدوه بالأسلحة والبارود ؛ ولم يمض وقت طويل حتى امتلأت الحجلات بالبنادق والطلقات . وحالت جنسيته الانجليزية بينه وبين تدخل السلطات ، فوقف

أولو الأمر يرقبونه من بعيد في غيظ وحنق ، وجعلوا يحوكون
الدسائس لقتله والتخلص منه ؛ ومع ذلك لم يأبه للخطر الذي
يهدده ، ووقف ثابتاً يعمل في جراحة ، ويمهد للوطنيين سبيل
الاجتماع سرا تحت سقفه ، ويمد المتآمرين بالمال .

وترجم البعض ديوان « الطفل هارولد » إلى الإيطالية ،
وحفظ الناس ما يتناول بلادهم وتحريرها ، فألهبت الأشعار
نيران الوطنية في قلوبهم ، ورددوها صلوات مقدسة تبارك الحركة
التي يقومون بها .

ومع هذه البطولة العظيمة ، والأعمال المجيدة ، ظل قلبه وحيداً
حزيناً ، ففي اليوم الثاني والعشرين من شهر يناير عام ١٨٢١
بلغ بايرون الثالثة والثلاثين من عمره ؛ وذاخله الحزن في ذلك
اليوم ، فكتب في يومياته يقول :

« — في الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل أبلغ الثالثة
والثلاثين من عمري !! وهأنذا أذهب الى فراشي ، بقلب مثقل
بالحزن لأنني عشت كل هذه الأعوام دون فائدة . . . ساعة
القصر تدق الآن منتصف الليل ، وأنا في الثالثة والثلاثين !!

ولكني لا آسف على ما فعلت قدر أسفى على ما كنت أستطيع
أن أفعله . »

ثم تلا ذلك بيتان من الشعر :

« فى طريق الحياة القدر ، تعثرت إلى الثالثة والثلاثين ، »

« ترى ماذا تركته لى كل هذه الأعوام ؟؟ »

« لا شىء غـير ثلاثة وثلاثين !! »

ولسكنه لم يترك لأحزانه سبيلا تظهر به على وجهه ، وأخفاها
حذراً بين طيات قلبه ، وظلت الابتسامة على شفثيه ، تبعث
الثقة فى نفوس المجاهدين ، وتشجعهم على مواجهة الخطر ،
وتعلمهم التضحية فى سبيل التحرير .

وأبى الحظ أن يترك بايرون فى سعادته ، فتدخل — وتلك
عادته — ليحطم آماله وأحلامه : فى شهر مارس من ذلك العام
هجمت القوات النمساوية ، وقعت الحركة الإيطالية ، وسحب
ملك نابولى الدستور الذى سبق أن منحه لشعبه ، وتفرقت
الجمعيات الوطنية ، وتخلى أهل رافينا عن جهادهم ، وقبض
الحرس البابوى على المتآمرين ، نخرج الشاعر من ميدان الأمانى
مخذولاً ، فانتوى أن يهجر رافينا إلى الأبد .

لم يسكت بايرون عن قرض الشعر خلال المرحلة المفعمّة
 بالمخاطر والأعمال ، فنظم في ذلك العهد قصة « دون جوان »
 التي تختلف كل الاختلاف عن الأسطورة الأسبانية القديمة .
 ورسم فيها صورة واسعة لحياته ورحلاته وإحساساته ، وفي نفس
 الوقت هجا حياة الانجليز إذ ذاك ، ونقد الطبقة الحاكمة .

وفي « دون جوان » تتغير فلسفته القديمة في الحياة ، نتيجة
 إقباله على قراءة فولتير ، وتشبعه بمبادئه ، ويزول عهد بايرون
 الحزين الغامض ، وتسود شعره السخرية المستترة وراء قناع كثيف
 من النقد المرير .

ولم يكتف بهذه القصيدة . بل كتب قصصاً أخرى مستقاة
 من الإنجيل ، ولكنها مصبوغة بصبغته ، ومحورة وفق أفكاره
 وإحساساته . وأهم هذه القصص « قابيل » التي وضع فيها
 احتجاجه الحار على الأقدار ، وخلق الرذيلة في الإنسان . وتبدأ
 القصة بعد طرد آدم من الجنة ، حيث يعيش مع أولاده الذين
 يعبدون الله جميعاً ، ولكن قابيل يأبى أن يشاركهم في عبادتهم
 غاضباً على من قدر الخطيئة على أبيه ، وينكر أن يقاسى عقاب

جريمة لم يقتربها . وعلى لسان هذا التأثير يضع المؤلف احتجاجه
الشخصي ، ويفسر شكوك نفسه ، ويفصح عن غضبه على
الأقدار والناس :

قابيل : « أهذه هي الحياة ؟ أعمل وأكدّ دون أمل ؟ »

« أشقى لأن أبى لم يحتفظ بمكانه في الجنة ؟ ولكن »

« ما ذنبى ؟ لم أكن ولدت عند ما فعل ذلك ، ولست »

« أحب العالم الذي أعيش فيه . ولماذا استسلم للحية ، »

« وخُدع بالمرأة ؟ وما دام قد استسلم ، فأى خير يرجى »

« من تعذيبه ؟ لقد غرست الشجرة ، فلماذا لا تكون له ؟ »

« وإن لم تكن له ، فلماذا وضع بجوارها ، وقد ظهرت »

« لعينيه أبهى وأينع مما حولها ؟ إجابة واحدة لكل هذه »

« الأسئلة : « هذه إرادته ، وهو طيب رحيم ، ومن »

« أدرانى أنه كذلك ؟ لأنه قوى جبار يكون أيضاً »

« طيباً رحيماً ؟ إننى أحكم بالثمار ، وهى مرة المذاق »

« وعلى أن أقتات بها من أجل غلطة سوى . »

وفي مكان آخر من الرواية تظهر « عادة » أخت قابيل

وزوجته ، وفي حوارها مع الشيطان « لوسيفار » يدافع بايزون
عن علاقته بأخته :

عادة : « قابيل . . . لا تذهب مع هذا الروح ، واحتمل »
« ما نحتمله ، وأحببني فأنا أحبك »

لوسيفار: « اتحببته أكثر من أمك وأبيك ؟ »

عادة : « نعم . . . وهل في ذلك خطيئة أيضاً ؟ »

لوسيفار: « لا . . . ليس الآن ، ولكنها ستكون »

« خطيئة في عهد أولادك »

عادة : « ماذا تقول ؟ ! ألن يستطيع ابني أن »

« يحب أخته أينوح ؟ »

لوسيفار: « سيحبها ، ولكن ليس كما تحبين قابيل »

عادة : « أواه يا إلهي . . . ألا يتحابان ، وينجبان »

« ما يتطلبه الحب منهما ؟ ألم يرضعا من هذا »

« الثدي ؟ أو لم يولد أبوها من نفس الرحم »

« التي تم بهما خلقي ، وفي نفس الساعة التي »

« ولدت فيها ؟ ألم نتحاب نحن الاثنين ؟ »

وعندما يقتل قابيل أخاه هابيل ، يأتي الملك ليصمه فيخضع

للعقاب . وهنا يدافع بايرون عن نفسه ويهجم على الأقدار التي حكمت عليه بالخطيئة :

قائيل : « ولدت بعد الطرد بزمان قصير ، ولم يكن عقل »
 « أمي من الحية قد هدا ، ولا حزن أبي على الجنة قد »
 « ذهب . أما أنا فاسعيت إلى الحياة أو صنعت نفسي ! »

وعندما ظهرت القصيدة ، وطبعت في إنجلترا حمل الناس عليها حملة شديدة من الناحية الدينية ، ولكن بايرون قابل الثورة في شجاعة وتحد كعادته .



حزن بايرون على إخفاق الثورة الإيطالية ، فقد كان يعتقد عليها الآمال ، ويرجو أن تتيح له فرصة إرضاء نفسه القلقة ، وفرصة خدمة مبادئه الحرة . ولم يعد في رأينا ما يدعو إلى البقاء بعد أن تحطمت آماله ، ونفيت أسرة حبيبته تريزا من البلد ، فانتوى الرحيل ، وسمعت كلير كليرمونت أنه وضع ابنتها أليجرا في الدير ، فغضبت عليه واحتجت ، لما عرف عن راهباته من قسوة وخشونة . وطلبت أن تزورها ، فرفض أن يسمح لها بالزيارة ، فأرسلت من يستطلع حالتها ، فجاءتها الأخبار بما حقق

ظنونها الأولى . وتوالت الخطابات على بايرون ، يطلب فيها شيلي إخراج أليجرا من الدير ، وعند ما علم بقرب رحيله من رافينا ، استحلفه أن يحضرها معه إلى بيزا ، ولكن بايرون لم يرد على الرسائل ، ولم يعرها أقل اهتمام ، فقد حانت الفرصة لتعذيب المرأة التي يكرهها . ونسى أنه بتعذيبه كليز إنما يعذب الصغيرة أضعافا ؛ ولما إلى وصل بيزا كان شيلي في انتظاره ، فوجد أنه قد أحضر معه ثلاث أوزات لتؤنس وحشته ، ولكنه لم يحضر أليجرا الصغيرة !

لم يشعر بايرون بالسعادة في بيزا ، فهناك جالية انجليزية كبيرة ترقب حركاته وسكناته ، في احتقار وسخرية ؛ وطبيعي أن يتملكه القلق بين أعدائه وكرهيه . وضيق كليز كليز مونت عليه الخناق عند ما علمت بوصوله وقد ترك ابنتها خلفه ، وتحرك الوحش الذي يكن في صدر الأم إذ أحست خطراً يهدد وليدتها ، فكاتبته ثانية بغضب وحنق ، وكالت له الإهانات بغير حساب ، ولما لم تجد أذنا صاغية غيرت أسلوب رسائلها ، وعمدت إلى اللين والاستعطاف ، وجعلت ترجوه في خضوع وذلة أن يسمح لها برؤية ابنتها ! وقالت في رسالة إليه :

— « لا أستطيع مقاومة شعور باطنى يحدثنى بأنى لن أراها ثانية ، فأستعطفك أن تحطم هذا الشعور ، بأن تسمح لى برؤيتها . »

لم يجبها ، ولم يلب رجاءها ، فتدخل شيلى ولكنه لم يوفق إلى إقناعه ؛ وعندما رأى عيني بايرون تشعان بالسرور ، لآلام الأم المسكينة ، كف عن محاولته ، ونصح لكثير بالصمت . وأخيراً وصلت الأخبار بموت أليجرا إثر إصابتها بحمى خطيرة انتشرت أخيراً فى الدير .

وحزن الشاعر على ابنته ، فلم يكن يظن أن عناده سيقضى على الصغيرة ، وأحس بالندم على قسوته وأراد أن يكفر عن زلته ، فكلف رساماً شهيراً أن يرسم لها صورة كبيرة ، وأمر بتحنيط جثمانها ، وإرساله إلى إنجلترا ليدفن فى مقبرة كنيسة هارو . وسأل كثير الموافقة فأبت أن تبدى له رأيا ، وتركته يفعل مايشاء ، وطلبت فقط أن يعطيها خصلة من شعر ابنتها وصورة صغيرة لها ؛ وفى هذه المرة أجاب الطالبين من فوره .

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو عام ١٨٢٣ شحنت جثة أليجرا ، وأرسلت فى سفينة إلى إنجلترا ، ولكنها

لم تدفن في المكان الذي اختاره لها ؛ لأن ولاية الأمور رفضوا أن تضم أرجاء المقبرة رفات طفلة غير شرعية ، وانتهى الأمر بأن حفر لها قبر صغير خارج حدود المكان ، ودفنت فيه دون ضريح أو شاهد يحمل اسمها ، ولكن الطبيعة عطفت على أليجرا فمنت بجوار قبرها شجرة جميلة ما زالت قائمة إلى اليوم ، تشير إلى مشواها المجهول .

وعاقب الله بايرون فخرمه رؤية ابنته الشرعية آدا التي كان يفخر بها ، ويناجيها في أشعاره ، إذ نشأت وترعرعت دون أن تسمع باسم والدها إجابة لرغبات أسرة أمها !

وانتهت أيام ييزا بكارثة فادحة هي وفاة شيلي غرقاً ، وبذلك فقد شاعرنا آخر صديق له . وعندما أحرقت الجثة تنفيذاً لوصية الراحل ، طلب بايرون أن يعطى الجمجمة ليحتفظ بها تذكراً لصديقه ، ولكن زوجة الميت وأصدقاؤه رفضوا إجابة هذا الطلب لأنه سبق أن جلب من اليونان جمجمة استعملها قدحاً للخمر فيما بعد ، وخشوا أن يحل برأس شيلي ما حل بسابقه !

نزل بايرون بمدينة جنوا في شهر سبتمبر عام ١٨٢٢ ، وعاش

فيها زهاء عام ، وفي خلال هذه المدة بلغ حنينه إلى وطنه أقصاه ، وتحرق شوقاً إلى رؤية بلاده وأسرته ، وتمنى لو استطاع العودة إلى زوجته وابنته ؛ فلما لم تتحقق رغائبه سئم الحياة في إيطاليا ، وفكر في هجرها إلى وطن جديد . واتجهت أنظاره ثانية إلى اليونان التي تحارب في سبيل استقلالها ، وعاودته الرغبة في مساعدة هذه البلاد العزيزة ، وأراد أن يخدم قضية الحرية من جديد .

وكانت اليونان إذ ذاك في حرب طاحنة مع مستعمراتها الأتراك ، وعلى الرغم من ضعف اليونانيين وقلة استعدادهم ، توالت انتصاراتهم على أعدائهم الأقوياء ، مما يبشر بالفوز والنجاح . ولكن الحالة السياسية انقلبت فجأة إلى فوضى خطيرة . فلم يكن هناك قائد ممتاز ، يستطيع أن يجمع شمل الجيوش ، ويوجهها توجيهاً صحيحاً ، ولم يكن هناك حزب سياسي يعمل في سبيل المصلحة الوطنية فقط . ولجأ اليونانيون إلى إنجلترا ، ينشدون مساعدتها في محنتهم ، فسافر مندوب منهم إلى لندن ، ليدافع عن قضية بلاده ، فشككت لجنة الإنجليزية لتساعده في مهمته .

وانتوى بايرون أن يلبي نداء الحرية ، وأعلن حربها أولاً

بقلمه ، فأضاف إلى « دون جوان » فصلا جديدا يذهب فيه
البطل إلى حصن إسماعيل ، خلال الحملة التركية الروسية ،
فيكشف عن حقارة حياة القواد الذين يتخذون التقتيل مهنة
دائمة ، ويسخر من الرجال الذين يحاربون فقط ، من أجل
الأوسمة والشهرة .

وكانت سخريه بايرون لاذعة مريرة ؛ تردد صداها في جميع
أنحاء أوربة ، وكانت القصيدة برداً وسلاماً على قلوب الملايين
من الرجال الذين قاتلوا وعذبوا من أجل أنانية رؤسائهم ؛
وترجمت القطعة إلى كل اللغات ، وحفظها الناس في مختلف
البلاذ ؛ واقتطف أصدقاء اليونان من « الطفل هارولد »
الفقرات التي تمجده هذه البلاذ ، وطبعوها ونشروها في كل مكان ،
فتهمأت الأذهان لقضيتها ، وتفتحت القلوب لمساعدتها ، وانتشالها
من محنتها .

وعقد بايرون عزمه على السفر إلى اليونان ، ليدها بأمواله ،
ويقاتل أعداءها بنفسه ، وكتب مقطوعة يقول فيها :
« لقد استيقظ الموتي ، فهل أنام ؟ »
« وثار العالم على ظلمه ، فهل أخضع ؟ »

« وطاب الزرع ، فهل أتوانى عن الحصاد ؟ »

« لن أتردد ، فالشوكة فى مرقدى ، »

« ونداء الحرب فى أذنى ، وصداها فى قلبى . »

وساعد بايرون على تحقيق عزمه أن كان فى ذلك العهد من الأغنياء ؛ فقد باع ضيعتيه نيوستيد وروشديل بمبالغ طائلة ، ونال عن طريق زوجته نصف الثروة الضخمة التى آلت إليها أخيراً ، وصار إirاده من كتبه سبعة آلاف من الجنيهات كل عام .

وأعد لسفره سفينة ، جهزها بالمؤن والذخيرة ، وصحب معه صديقه پيترو جامبا شقيق تريزا ، وكذلك خادمه فلتشر ، وطبيبه الدكتور برونو ؛ وأبحر الجميع إلى اليونان ، بعد أن أرسل إلى أصدقائه بانجلترا يقول :

« سترون — إذا امتد بى العمر عشر سنوات آخر — أنتى لم أنته بعد ... لا أقصد فى الأدب ، فما خلقت لهذا اللون . ولكنكم سترون منى عملا يدهش الفلاسفة فى مختلف العصور ! »

في اليوم السادس عشر من شهر يولييه عام ١٨٢٣ بدأ بايرون رحلته البحرية ، فها تحركت السفينة حتى وقف على ظهرها يرقب اختفاء الشاطئ الأوربي في بسمه حزينة ، فقد كان قلبه يحذنه أن هذه الرحلة هي آخر رحلاته في الحياة . وفي خلال الأيام الأخيرة ظل يؤكد لأصدقائه قائلاً :

— « لن أعود أبداً من اليونان . »

وتملكه هذا الشعور وهو يرقب ابتعاد الشاطئ ، فنظر إلى بيترو جامبا في أسي وقال :

— « ترى أين أكون في مثل هذا اليوم من العام القادم؟ »

وقد وجد في مذكرات بيترو :

— « في نفس اليوم ، ونفس الشهر من العام التالي ، حملناه

إلى مقبرة أجداده ! »

وعلى ظهر السفينة تغيرت أخلاق بايرون تماماً : كان أبداً فرحاً مسروراً ، لا يغضب ولا يشور ؛ يعطف على الكل ، ويعني

بمن معه ، ويواسى الحزين ويخدم المريض . وانتشر روحه
 الهادئ الجميل فى أنحاء السفينة ، فملأ قلوب من عليها بالشجاعة
 والتفاؤل ، والأمل . وقرر أن يقطع كل صلة له بالنساء ، فلقد
 كنّ أبداً سبب سقوطه ونكباته ، وحلن دائماً بينه وبين الحياة
 التى يتمناها . وقرر أيضاً ألا يكتب شعراً ، ليثبت للعالم قدرته
 على الأعمال لا الكلمات ؛ وانتوى أن يلعب دوراً فى عالم البطولة
 والتضحية ، يرفع اسمه إلى سماء المجد والفخار ؛ ومن يدرى ؟
 لعل أنابيل تعطف إذ ذاك ، وتقبل العودة إليه ، فيعيش ما تبقى
 من العمر بين أسرته وفى بلاده .

ومن أجل أن يفيد قضية اليونان ، حمل معه عشرة آلاف
 دولار اسباني ، وخمسة وثلاثين ألفاً من الجنيهات الإنجليزية ،
 وصكوكاً تضع تحت إمرته أربعين ألفاً أخرى . وكرس كل هذا
 المال ، لخدمة الحرية واستعادة استقلال اليونان .

وفى اليوم الثانى من شهر أغسطس لاح شاطئ سيفا لونيا ،
 فأشار إليه قائلاً :

— « لست أدري لماذا أشعر الآن ، أن السنوات الاثنتى عشرة
 التى مضت منذ زيارتى هذه البلاد قد انزاح حملها من فوق كتفى » .

كانت قصائد بايرون عن اليونان وحريتها ، قد سبقته إليها ،
وانتشر خبر قدومه لمعاونتها ، فاحتشدت الجماهير في ميناء
أرجوستولى ، لاستقبال البطل . ونزل الشاعر من السفينة ،
فرأى جموعاً زاخرة ، من النساء والرجال والأطفال يهتفون باسمه ،
ويحيونه في حماسة وحمية ؛ فوقف في مكانه لا يقوى على الحركة
واغرورت عيناه بالدموع ، فما عرف التمجيد والاحترام منذ
زمن بعيد !

وعقب نزوله وصلته رسالة من « ماركو بوزاريس » قائد
جبهة « أناتوكيلون » ، يناشده الإسراع إلى مساعدته ، لوقف
تقدم الأتراك ، ولكن لم تمض ساعات قلائل ، حتى جاءت
الأخبار باستشهاد الزعيم في ساحة القتال ؛ وطلبت منه الحكومة
اليونانية أن يتمهل ، ولا ينضم إلى فريق معين حتى تصله
إرشادات جديدة ؛ ولذلك استأجر بيتاً في ميتاكساسا ، وعاش
فيه مع صديقه پيترو ، وطبيبه برونو ، وخادمه فلتشر ، ينتظرون
وصول الإرشادات .

وجاءت الأوامر بسفره إلى « ميسولونجى » فركب في السفينة
مرة ثانية ، وأبحر إليها ، فوصلها في اليوم الخامس من شهر يناير

عام ١٨٢٤ ، بعد أن استهدف لعاصفة هوجاء ، واشتبك مع الأتراك في قتال .

وفي ميسولونجى استقبله الناس بحفاوة لا مثيل لها ، واصطفت الجيوش لتقدم له تحية عسكرية ، واحتشدت الجماهير تهتف باسمه ، وتواثبت القلوب فرحة بقدومه ، وأشرقت الوجوه سعيدة برؤيته .

و بين مظاهر التمجيد والتبجيل نزل بايرون إلى المستقبلين في حلة عسكرية استعارها من أحد الضباط ؛ ووطئت أقدامه البلاد التى مات فيها .



كانت حياة بايرون فى ميسولونجى سلسلة من العذاب النفسى والجسدى ، فسجلت صحيفة تملأ القلوب بالحزن والرثاء : فالبلدة صغيرة رطبة ، لا ترتفع كثيراً عن مستوى البحر ؛ تحيط بها المستنقعات الراكدة ، وتنسابها العواصف والرياح ، وتساقط فيها أمطار غزيرة تقلب الطرقات إلى بحيرات من الوحول ، وتنفوح فى جوها رائحة الأسماك والأملاح ، ويكثر فيها الذباب والبعوض نذر الأمراض والحميات .

وعاش بايرون في بيت صغير يقع فوق رابية تطل على الشاطئ ،
من بعيد ؛ ولم تكن سبل الراحة تتوافر في ذلك البيت : فالجدران
رقيقة ، والسقف مختل ، والنوافذ أضعف من أن تقاوم الرياح ؛
ومع ذلك لم يحزن أو يتألم ، بل عاش فيه سعيداً راضياً .

وما إن استقر به المقام حتى استعرض موقف اليونان في ذهنه ،
فوجد أموراً عدة لا تبشر بالنجاح : فالفوضى تسود الأحزاب
السياسية ، والقواد ضعفاء ، لا نفوذ لهم على الرجال ؛ والمدينة
تحتشد بجنود مرتزقة من قبائل السولويوت الهمجية ، ومع ذلك
لم تدفع الحكومة أجورهم ، فاشتد بهم الجوع ، وأصبحوا خطراً
على البلاد أكثر من الأعداء .

وقرر بايرون أن يعمل في الحال ، فأرسل إلى إنجلترا يطلب
مدداً من الحكومة ؛ وجعل السولويوت تحت إمرته الشخصية ،
ودفع لهم متأخر مرتباتهم من ماله الخاص ، وتكفل بنفقات جيشه
الجديد ، فبلغ ما دفعه في يوم واحد خمسين ألفاً من الدولارات .
ولم تكن هناك حركات حربية تبعد تفكير السولويوت عن
الثورة والمشاغبة ، فرأى أن يمرنهم على القتال وأساليبه ، وبذلك
يشغل أذهانهم ، ويجعل منهم جيشاً منظماً مفيداً . وكرس

صباحه كل يوم لتعليمهم ، وقام نفسه بتمرينهم تحت الأمطار المتساقطة ، وبين الرياح الغاضبة .

ولكن الحكومة الإنجليزية ترددت في إرسال ما طلبه من الإمدادات ؛ وانتشرت المجاعة في ميسولونجى ، فقام بتنظيم توزيع الطعام ، وقلل وجباته الشخصية ليطعم غيره ، وعاش على الماء والخبز المجفف فقط ، وكانت النتيجة أن ضعفت صحته ، ونحل جسده ، وتضاءلت مقاومته ، فانهار كيانه ، وعادته أمراضه القديمة مما عجل منيته .

وضعت مالية البلاد في ذلك العهد ، واحتاجت الحكومة إلى مبالغ إضافية ، لتستطيع مواصلة القتال ضد الأتراك ، فأرسل بايرون يطلب من الحكومة الإنجليزية أن تمنح اليونان قرضاً كبيراً تساعداه به على التحرر ؛ ولكن إنجلترا ترددت أيضاً ، فوهب لليونان نقوده ، لينقذ الجيوش من مأزقها . ولم يكتف بذلك ، بل كتب الرسائل إلى أصدقائه الإنجليز ، ينشد مساعدتهم ، فقاموا - تلبية لرغبته - بحملة صحفية شديدة ، وطبعوا قصائده التي تناول الحرية اليونانية ، ونشروها في كل

مكان ، ليهيئوا الرأي العام ، ويضطروا ولاية الأمور أن يوافقوا على القرض والإمدادات .

وجد بايرون أن الأتراك يحتلون حصن « ليمانكو » ، فيعرقلون تقدم الجيوش ، ولذلك عزم على مفاجأة الحصن والاستيلاء عليه . وانتوى أن يقود الحملة بنفسه ، ليلهب شجاعة رجاله ويضمن النجاح . وأعد العدة في حذر ، وأنفق أموالاً طائلة ، ولكنه فوجئ في اللحظة الأخيرة ، بعصيان جيشه ، وثار السوليوت ، يطلبون تسليم مسجون تركي ، ليمثلوا به ، فلما رفض مطلبهم ، اقتحموا عليه بيته ، وهددوه في حجرته . ووقف بايرون أمامهم ثابتاً ، وتناول غدارته وواجههم في شدة وصرامة ، فانسحبوا أمامه خائفين . وهكذا انتصر وحيداً على جيش كبير ، ولكن أمله تحطم في مهاجمة الحصن ، وطرد الأتراك منه .

وحدث بعد ذلك أن حاصر الأتراك ميسولونجي ، وأصبح السبيل الوحيد للخلاص اختراق الحصار بهجوم ليلي ، فتعهد بايرون الحملة ، وأعد العدة ، وقرر لها اليوم السابق لعيد ميلاده ليحيى

هذا العيد بنصر عظيم ، ولكن الأتراك تخلوا عن المدينة فجأة ،
فحبط مشروعه الجديد .

وفي اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير أتم الشاعر عامه
السادس والثلاثين ، فجلس بين أصدقائه حزيناً كئيباً ، وتناول
ورقاً وقلماً ، ونظم القصيدة الوحيدة التى كتبها فى اليونان ،
وقال فيها :

« إن كنت تأسف على زوال الشباب فلم تعيش ؟ »

« هاك أرض الموت الشريف النبيل ، »

« فإلى ميدان الجهاد ، واستشهد فيه »

« وابحث لنفسك عن قبر جندى ، »

« فهو لك أشرف القبور ؛ »

« وتأمل حولك ، واختر لجسدك مثوى ، »

« وارقد لتستريح . »

وفي المساء تضاعف حزنه وتشاؤمه ، فنادى خادمه وسأله
أيرغب فى السفر إلى إيطاليا ؟ فأجاب الخادم :

— نعم . . . إذا ذهب مولاي أذهب معه .

فابتسم بايرون فى أمسى ، وقال :

— كلا ... لن أعود أبداً من اليونان ، وسيحول الأتراك
أو اليونانيون أو الجودون عودتي !
وكان لا يزال يذكر نبوءة قديمة حدثته بها إحدى المنجيات
في طفولته ، وأكدت له فيها أن العام السابع والثلاثين هو
أخطر مراحل حياته !

وانتعشت الآمال في قلبه من جديد عند ما بلغه وصول سفينة
إنجليزية تحمل مهندسين وذخيرة ومؤنًا . وبدأ المهندسون في تعليم
الرجال شئون السلاح والمدفعية ، ولكن السولويوت ثاروا ثانية ،
وقتلوا ضابطًا سويسريًا ، فانتشر الذعر بين المهندسين ، وطلبوا
العودة فوراً إلى بلادهم ، فسهل لهم بايرون سبيل الرحيل ، ودفع
لهم مرتباتهم ونفقاتهم حتى غادروا البلاد .

وانتشر الطاعون في المدينة ، ثم حدث زلزال شديد هدم
البيوت وقوض المنشآت الحربية ، ومع ذلك سمع بايرون أن
الجنود أسروا أربعاً وعشرين امرأة تركية ، وانتوا بيعهن في
أسواق الرقيق ، فخرج بين الطاعون والزلزال ، وأفرج عن
الأسيرات ، وأعادهن سالمات إلى بلادهن ، فسجل في تاريخه

عملاً إنسانياً رائعاً يمحو الكثير من زلاته السابقة .

وعلى الرغم من كل هذا ظل بايرون رقيقاً مجاملاً : لم تفقده الصدمات شجاعته ، ولم تضعف الفكبات أمله في النصر والحريّة وظل كريماً إلى النهاية يبذل ماله بسخاء في سبيل القضية التي يحارب من أجلها . ولو كان رجل آخر مكانه ، وذاق في ميسولونجى عذاب الجوع والفشل ، لعاد إلى وطنه ورضى من الغنيمة بالإياب ، ولكن بايرون لم يفعل ذلك ، بل بقى شجاع القلب قوى العزيمة ، يشعل الحماسة بصره واحتماله ، ويطمئن القلوب بثقته وابتسامه . وبابتعاده عن النساء ظهرت مواطن الحسّن في أخلاقه ، وتعرف الناس حقيقة نفسه وطباعه ، فلقد كانت المرأة أبداً عدواً لدوداً تقلب هذا الملك إلى شيطان مريد . وفى بعض الأحيان كان الشاعر يضعف تحت وطأة المصائب ، فيأسف على قدومه ؛ وحدث ذات يوم أن تسلم خطاباً من صديقه هو بهائوس يحذره فيه اليونان ، فابتسم بايرون وقال :

— « آه . . . تحذير بعد أوانه . . . كتحذير رجل من امرأته بعد أن يعقد زواجه منها ! »

ولكن مثل هذه اللحظات كانت نادرة وقصيرة ، فيتغلب

عليها ويعود إلى هذوته وشجاعته ، ويقول لأصدقائه إنه يفضل
هذه الحياة وخشوتها وآلامها على حياة لندن ومرحها
ونسائها وخمرها :

— « إن الفقر بأساء شديدة ، ولكنه يسمو بكثير على
غيره من النظم الفانية التي لا تحوى معنى أو شعوراً ! »
وعرضت عليه الحكومة اليونانية وظيفة المحافظ العام ،
ويقولون إن هذا المركز كان الخطوة الأولى في سبيل العرش ،
وليس هذا بغريب على بطل طموح ، ولكن القدر لم يمهله ،
ليصل إلى هذا أو ذاك .

في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير جلس بايرون في بيته
مع جماعة من الأصدقاء ، فأحس بالعطش ، وأخذ بعض النبيذ
ليشربه ، ولكن سحنته انقلبت فجأة ، وقام من مقعده ، فلم
يستطع المسير ؛ ووقف في مكانه لحظة ثم تخط وسقط فائد
النطق . وحضر الطبيب على عجل ، وأسعفه بالعلاج ، فعاد
إليه رشده .

وفي اليوم التالي كان ضعيفاً باهت اللون وشكا ألماً برأسه ،

فأحضروا له علقةً يمتص بعض دمائه ، وعند ما أزيح العلق
ظلت الدماء تنزف من جبهته ، وعجز الطبيب عن إيقافها إلا بعد
جهد كبير .

وبقي المريض في فراشه لا يغادره ، حتى وصلت أخبار طيبة
تقول : إن أصدقاءه في لندن نجحوا في حملتهم ، وبمساعدة
أشعاره اشتد ضغط الرأي العام ، فقررت الحكومة منح اليونان
قرضاً كبيراً . وتملكه سرور شديد ، فزابل فراشه ، وخرج على
ظهر جواده ، للرياضة قليلاً ، ولكن الأمطار هطلت فجأة ،
فعاد إلى بيته محموراً .

واشتد به المرض ، فقرروا الأطباء نقله إلى بلد آخر تتوافر فيه
وسائل العلاج ؛ وأبت الطبيعة عليه ذلك ، فظلت الأمطار تنهمر
والرياح تعصف ، فلم يستطيعوا نقله .

وفي اليوم الخامس عشر من شهر أبريل انحطت قواه ، ومع
ذلك لم يفقد الأمل في الشفاء ولم يطرؤ على ذهنه أن المنية قد
حانت . . . لا لأنه كان يخاف الموت أو يخشاه ، بل لأنه كان
يتمنى العودة إلى وطنه ، والعيش فيه مع زوجته وابنته .

واقترضت الحالة أن يفصد ، فعارض خشية النزيف ، وبعد
إلحاح خضع لرأى الأطباء ، وقال لهم :
— « إنكم قصابون ، فخذوا ما يكفيكم من دمائي . . .
هيا ، انتهوا من هذه المسألة ! » .

وفي الساعة الرابعة من مساء اليوم التاسع عشر قطع الأطباء
كل أمل في شفائه فجلس فلتشر وبيترو بجواره يبكيان ، فابتسم
وقال لهما مداعباً :

— « ياله من منظر جميل ! » .

بيد أنه أحس بدنو الأجل ، فطلب من خادمه فلتشر أن
يصفي إلى وصيته ، لينفذها بعد وفاته ؛ ولما حاول الخادم
إحضار ورقة وقلم ، منعه بايرون قائلاً :

— « كلا بالله عليك . . . سنضيع بذلك وقتاً طويلاً .

انتبه ، واستمع لأوامري . »

وسكت برهة ثم استطرد :

— « طفلي الصغيرة . . . آدا المسكينة . . . لو كنت رأيته

مرة واحدة ! بلغها دعواتي وبركتي ، وكذلك أختي وأولادها ،

واذهب إلى زوجتي ، وأخبرها بكل شيء . »

وخانه الصوت ، فظل يتمم بحديث طويل استغرق عشرين دقيقة ، ولم يفهم الخادم منه كلمة واحدة ؛ وطلب منه أن يعيد الحديث ، فهتف المريض يائساً :

— « فات الوقت ، وضاع كل شيء . . . أحقاً لم تفهم حديثي ؟ »

— لم أفهمه يا مولاي ، فحاول أن تعيده ثانية .
— « كيف يمكنني ؟ . . . فات الوقت . . . وانتهى كل شيء . »
فقال الخادم حزيناً :

— ما هذه إرادتنا ، بل هي إرادة الله .
إذ ذاك جمع بايرون شجاعته ، وحاول الكلام ثانية دون فائدة ، وكل ما سمعه فلتشر وبيترو كلمات متقطعة :
— « زوجتي . . . ابنتي . . . أختي . . . أخبرهن بكل شيء ، فأنت تعرف رغباتي . »

واشتدت آلام رأسه ، فأزاحوا له الرباط عنه ، وأحسن المريض بالراحة ، فأجهش بالبكاء ، وقال له بيترو :
— ستتحسن حالتك الآن ، ياسيدي اللورد . . . اذرف من الدمع ما استطعت ، فستشعر بالراحة وتنام .

أجاب بايرون في ضعف :

— لست أخشى الموت ، ولكن لماذا لم أذهب إلى إنجلترا
قبل حضوري إلى هذه البلاد ؟
وعاوده الهدوء ، وألقى على من حوله التحية ، وطلب أن
ينام ، وأسلم الروح في منتصف السابعة .

كانت العاصفة تهب في هوج ، والأمطار تتساقط في سيول ،
والطرقات تمتلئ بالوحول ، ومع ذلك تجمع الناس ، ينتظرون
أنباء بطلهم المحبوب ؛ وما ذاع نعيه حتى هلعت قلوبهم ،
وأجهشوا بالبكاء ، وهتف الكل قائلين :

— « مات الرجل العظيم »

وعند الفجر أطلقت المدافع تحية للراحل ، وأغلقت الحكومة
دواوينها أياماً ثلاثة ، ووقفت الاحتفالات في جميع أنحاء اليونان
وأقامت الكنائس صلوات على روحه .

وفي اليوم الأول من شهر يولييه عام ١٨٢٤ وصلت إلى إنجلترا
السفينة « فلوريدا » ، وهي تحمل جثمان الشاعر الطريد ،

ولم يكن في استقبالها إلا أخته أوجستا وبعض الأصدقاء .
 وطلبت الأخت أن تودعه ، ففتح الصندوق ، ولكن وجهه
 كان قد تغير كثيراً بفعل التحنيط ، فلم تعرفه .

وأرادوا أن يدفنوه في كنيسة وستمنستر ، ولكن الأساقفة
 رفضوا إجابة الطلب ، بل رفض القساوسة جميعاً الصلاة عليه ؛
 فتقرر أن يدفن في نيوسايد دون احتفال ديني .

وسئلت أنابيلا عن رغباتها فيما يخص الجنازة ، فلم تبد رأياً ،
 ورفضت أن تتدخل ، حتى لم ترسل طاقة من الزهور إلى قبره .

وفي اليوم الخامس من شهر يوليه سارت جنازة صغيرة إلى
 نوتنجهام ، وفي أحد البيوت المطلة على الطريق وقفت امرأتان
 تنظران من نافذة : فبكت إحداها ، وهي ماري زوجة شيلي ؛
 ونظرت الأخرى في سخرية وجمود ، وكانت كلير كليرمونت
 أم أليجرا الصغيرة !

ودفن بايرون في نيوسايد بجوار أمه ، فجمع القبر بين قلبين
 تشاحنا وتفرقا في الحياة .



وبعد أسابيع قليلة أراد أصدقاؤه تمجيد ذكره ، فجمعوا

ألف جنيهه ليصنعوا تمثالاً كبيراً له ، ولكن المثالين الانجليز اعتذروا عن صنعه ، فكلف فنان ألماني بالعمل ، وصنعه في بلاده وأرسله إلى إنجلترا عام ١٨٢٩ .

وكان الرأي العام ما زال يحقد على بايرون ، فرفضت الهيئات والجمعيات والمتاحف تسلم التمثال ، وبقي مهملاً في مخازن الجمرك عشرة أعوام ! . ولكن هذا التمثال وضع بعد ذلك العهد في جامعة كامبردج ، وما زال بها إلى اليوم تحوطه أجمل آيات الاحترام والتبجيل .

١١

تممة

قد يكون من دواعي التسلية أن نحدث القارىء بمصير مذكرات بايرون ، تلك الوثائق التاريخية الهامة ، التي لو بقيت لأرسلت شعاعاً من الضوء على كل ما غمض من حياته ؛ وأن نقص عليه أيضاً نبذاً عن الشخصيات التي ارتبطت به ، وما تم لهؤلاء بعد هجرته ووفاته .

كتب بايرون مذكراته أثناء وجوده في إيطاليا ، وأرسلها هدية إلى صديقه توماس مور ، وطلب منه ألا يطبعها أو يقرأها إلا بعد وفاته . وحلت بمور كارثة مالية ، فاضطر إلى بيع المذكرات للناسخ مري مقابل ألف جنيه .

وبقيت المذكرات في حوزة الناشر حتى وفاة الشاعر ، إذ ذاك حاول مور أن يستردها منه ، فقام نزاع شديد بين الاثنين . ولكن جون كام هوپهاوس رأى في نشر المذكرات إساءة للراحل ، لما قد يكون فيها من اعترافات خطيرة . وانضمت إليه أوجستا في هذا الرأي . وقامت مفاوضات طويلة بين الطرفين في سبيل إحراق المذكرات دون قراءتها أو نشرها . واتفق الطرفان بعد أربع سنوات ، فأحرقت المذكرات عام ١٨٢٨ في حضور مور ومري وهوپهاوس وأوجستا .



أظهرت ليدي بايرون نبلا وشهامة عظيمة فيما يخص زوجها ، فقد رفضت أن تصرح بشيء بعد أن هجرته ، واضطر إلى الرحيل من إنجلترا . وعندما تطايرت الإشاعات عن علاقته بأخته ، وضع المجتمع بالفضيحة ، ظلت صامتة ، وأبت أن تبوح بحقيقة الدوافع التي

أدت إلى هجره . ولما رأت ما تعانیه أوجستا من احتقار واضطهاد عام ، تقدمت إلى صداقتها ، وأخذتها تحت رعايتها ، وساعدتها بالمال طيلة حياتها .

وكانت نتيجة هذا الكرم الشاذ أن انقلب الرأي العام عليها ، واتهمها الناس بقلّة الاحساس ، وموت العاطفة ، وبلاذة الذهن ؛ واحتقروها ونبدوها ، لصمتها وعطفها على أوجستا ؛ وظلت طريدة المجتمع ، حتى ماتت عام ١٨٦٠ .

ولم يشفع الموت لآنا بيلا ، فكتب محام اسمه « باجيت » مقالة يعقب فيها على وفاتها ويقول عنها :

« إن أحقر نساء الطريق في حي « هايماركت » أفضل شخصية من ليدى بايرون ! » .

ولكن أنا بيلا تصرفت هكذا خوفاً على اسم ابنتها آدا ، وخشية أن تحطم الفضيحة مستقبل الفتاة البريئة .

وعند وفاتها تركت وراءها صندوقاً بحكم الإغلاق ، يحوى كثيراً من الأوراق ، وأوصت بتسليمه إلى بعض من تأتمنهم من الأصدقاء ، وطلبت في وصيتها ألا يفتح هذا الصندوق إلا بعد وفاتها بعشرين عاماً أي سنة ١٨٨٠ . وجاء ذلك العام

ومضى ، ولم يفتح الأصدقاء الصندوق حذراً من أن يجدوا فيه ما يثبت الإشاعات القديمة ، فيحملوا أنفسهم تبعه هم في غنى عنها .
وبقي الصندوق مغلقاً حتى مات آخر هؤلاء الأصدقاء ،
فانتقلت ملكيته إلى اللورد « لوفليس » حفيد الشاعر . وفي عام ١٩٠٥
فتح لوفليس الصندوق ، فوجد الوثائق التي تثبت قصة
بايرون وأوجستا ، ومن ضمنها خطابات يعترف الاثنان فيها
بالخطيئة .

وأحس حفيد الشاعر أن الواجب يدعوه إلى مصارحة الجمهور
بالحقيقة فكتب القصة في كتاب أسماه « أستارتي » ، وهو اسم
بطلة ديوان « ما نوريد » ، وطبع الكتاب ووزعه ، فأنكشفت
المأساة على حقيقتها أمام الناس .

أوصت ليدي ميلبانكي والدة أناييلا ألا يذكر اسم بايرون
على مسمع من ابنته آدا ، أو تقرأ لها أشعاره حتى تشب
وتترعرع ؛ فلم تعرف الفتاة شيئاً عن أبيها إلا في الخامسة عشرة
من عمرها . ولما قرئت لها الأشعار لم تعجب بها كثيراً ، لأنها
كانت إلى العلوم أميل منها إلى الآداب .

وكانت آدا جميلة الشكل ، رخيمة الصوت كوالدها ، ولكن
كان في تصرفاتها بعض الشذوذ ، فتنافرت هي وأمها ، وعاشا في
خلاف مستمر .

وعند ما بلغت العشرين تزوجت من إرل « لوفليس » ،
ورزقت منه صبياً أصبح فيما بعد لورد لوفليس مؤلف « أستارتي »
ومات عام ١٨٥٢ قبل أمها بثماني سنوات ، وقد بلغت من العمر
سبعاً وثلاثين سنة . ودفنت — إجابة لوصيتها — بجوار والدها
في نيوسايد .



لما قرئت وصية بايرون وجد أنه ترك لأخته ثروة تربي على
مائة ألف جنيه ، ولكن أوجستا بددت المال في بحر سنتين ،
وعادت إلى فقرها السابق . والتجأت إلى أنابيللا تنشد المساعدة ،
فأمدتها بالمال طوال حياتها ، ولولا هذه المساعدة لماتت هي
وأولادها جوعاً . وتوفيت أوجستا عام ١٨٥١ .

اقرا

نتيجة الاستفتاء

بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤ اجتمعت لجنة الاستفتاء في دار مطبعة المعارف ومكتبها بمصر بحضور حضرات الأساتذة : الدكتور طه حسين بك وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف عن لجنة اقرأ ، والأستاذين شفيق نجيب م ترى صاحب مطبعة المعارف ومكتبها بمصر ويوسف مشاقه مديرها .

وقد صار إحصاء وفرز الأصوات الواردة فيبلغ عددها ٢٧٠٩ بنسبة ١٨٪ من النسخ التي توزع شهرياً .



قال الكتاب رقم ٨ «مذكرات د. هاجية» للدكتور إسحق موسى الحسيني بالقدس باستحسان أكبر عدد من القراء ، وكان ذلك بنسبة ٣١٪ من مجموع الأصوات الواردة فاستحق جائزة «اقرأ» لسنة ١٩٤٣ وقدرها سبعون جنيهاً مصرياً .



فاز حضرة السيد مصطفى البارودي بمعهد الحقوق العربي بدمشق بالافتراع السرى من بين القراء الذين استحسنوا الكتاب الفائز فاستحق الجائزة المخصصة لذلك وقدرها ثلاثون جنيهاً مصرياً .

ظَهَرَ حَدِيثًا



للاستاذ محمد فريد أبو حديد	الملك الضليل «أمرؤ القيس»	٢٥
للاستاذ أحمد الصاوي محمد	بزلارك	٢٥
للاستاذ أحمد الصاوي محمد	شلي (أوقبور في جنة الحب)	٢٥
للسيدة سهير القلماوي	ألف ليلة وليلة	١٠٠
للملازم السيد فرج	في شمال أفريقيا	٢٠
للاستاذ عبد الرحمن صدقي	ألوان من الحب	٢٠
للاستاذ علي أدهم	تلاقي الأكفاء	٢٠
للاستاذ محمود تيمور بك	بنت الشيطان	٢٠



ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بمناسبة العيد الألفى لأبي العلاء المعري

١٣٦٣ هـ - ١٣٦٣ هـ

تقدم

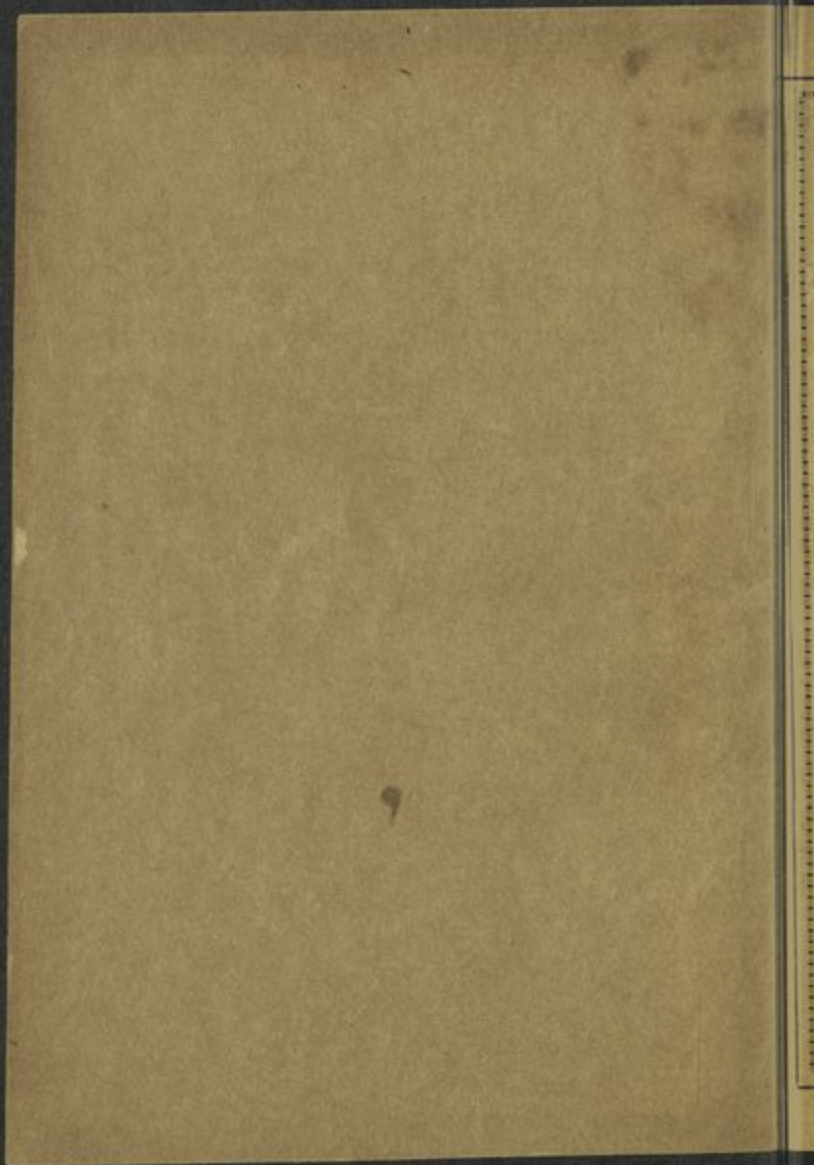
مطبعة المعارف وكتبتها بمصر

٢٥ (١) مع أبي العلاء في سجنه (الطبعة الثالثة)

تحليل دقيق لنفسية أبي العلاء مع وصف لفنونه
الشعرية والنثرية ، ونزعاته النفسية وبواعثها ، في
أسلوب سهل ممتع طريف ، للدكتور طه حسين بك

٣٠ (٢) رسالة الغفران (ترجمة انجليزية)

هدية الأدب العربي إلى الأدب الانجليزي ، اشترك في
إخراجها الأستاذان : كامل كيلاني و ج . براكنبري



DATE DUE



828:B996YsA:c.1

السعيد، امينه

بايرون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031752



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

828

B996Y5A

C.1